الكتاب الأول

القرآن الكريم

تمهيد

الحديث فى القرآن وعن القرآن لا ينتهى ، إنه لا يحده فكر بشرى ولا يقيده تصور إنسانى . ولقد كان من الحكمة العميقة أن رسول الله ﷺ لم يأخذ فى تفسيره كلمة كلمة وآية آية ؛ وإنما فسر كلمة من هنا وآية من هناك . ولم يقل صلوات الله وسلامه عليه : إن تفسيره يحد المعنى ويحدده ويقيده . وفسره رسول الله ﷺ بسلوكه أكثر مما فسره بقوله المباشر فى معناه لقد كان خلقه ﷺ القرآن ، فكان خلقه تفسيراً للقرآن ، ومن هنا كان قوله تعالى :

(لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا [1]) .

وفسره ﷺ بأحاديثه الكثيرة – عن طريق غير مباشر – أكثر مما فسره بطريق مباشر .

وإذا كان رسول الله ﷺ قد تحلى بالقرآن فكان سلوكه تفسيراً له ، وإذا كان قد امتزج بالقرآن فكان نطقه – وما ينطق عن الهوى – تفسيرا له ، وإذا كانت حياته كلها سلبا وإيجابا قولا وصمتا حركة وسكونا إنما هى تفسير للقرآن فإن الصحابة ساروا على منواله بقدر استطاعتهم ، ولم يحاول أحد منهم أن يفسر القرآن كلمة كلمة وآية آية وإنما حاولوا أن يستهدوا بالقرآن وأن يكون القرآن – ما استطاعوا – خلقهم .

لقد كانوا يعملون بالقرآن ، ويتخذونه إماما وقائدا . إنهم لم يتخذوه دراسة نظرية ؛ وإنما اتخذوه هداية عملية حتى إن بعضهم ما كان يجاوز فى الحفظ السورة إلى غيرها إلا إذا حقق ما فيها من أوامر ، وانتهى عما فيها من نواه . لقد اتخذوه دستورهم فى الحياة ، وأقاموه إمامهم فى حياتهم . لقد طبقوا قواعده والتزموا

(١) سورة الأحزاب آية : ٢١

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين .

بسم الله الرحمن الرحيم

(ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون [1])

---

(١) سورة البقرة الآيات : ١ - ٥

مبادئه : من جهاد ، وضرب فى الحياة ، وصدق فى القول ، وإحسان فى العمل ، وعبودية أسمى وأقوى وأخشع ما تكون العبودية لله سبحانه وحده ؛ وحققوا بذلك الأمة التى أحبها الله ورسوله .

ولقد ربى القرآن على مر العصور رجالا اتخذوه إماما وهاديا فكانوا مثلا عاليا فى الإنسانية لا يدانيهم غيرهم من سائر الدول . ولا يزال القرآن للآن هو القرآن الذى وحد قبائل وجمع أشتاتا ، وألف بين قلوب ، وكون أمة ،وأرسى قواعد حضارية تعتز بها لأنها حضارة بنيت على التقوى من أول يوم .

والآن ونحن فى شرقنا العربى وفى عالمنا الإسلامى فى سبيل النهوض والتطور والبعث والرقى فى حاجة أمس ما تكون الحاجة إلى الاسترشاد بمصدر الهداية ومنبع القوة .

(إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم)[1]

ولقد استرشدت فى كل ما كتبت بالآية القرآنية الكريمة .

(اقرأ باسم ربك الذى خلق)[2] .

لقد بدت أمامى كروضة يانعة يقتطف الإنسان منها أجمل الزهور ، ويشم من عبيرها أزكى الروائح ، وبدت أمامى كأنها منهج حياة ، وبدت أمامى موحية موجهة ، فسرت فى البحث مستلهما على الخصوص هذه الآية الكريمة .

إنها أول آية نزلت فى القرآن الكريم ، وهى ثرية بالمعانى ، وعلى الرغم من أنها كانت جوهر موضوع الكتاب فى ألفاظها وفى جوها فإنى لم أقل عنها كل ما يمكن أن يقال . ولكنى وأنا أسير فى جوها أحببت أن يكون الحديث خطوة فى سبيل إيضاح الطريق إلى النهج على سنن الصدر الأول فى الاستهداء بالقرآن عمليا ، وفى الأخذ فى الناحية العملية عبادة كانت أو ضربا فى الأرض .

ولقد استرشدت بالآية الكريمة فى عدة مجالات منها :

مجال العلم وهو أساس الحضارة والبعث والنهضة ، ولن تنهض أمة إذا لم تتخذ العلم أساساً من أسس نهضتها ، العلم بأوسع وأشمل ما تدل عليه كلمة العلم .

---

(١) سورة الإسراء آية ٩ .

(٢) سورة العلق آية ١ .

واسترشدت بها فى مجال الغزو الفكرى وموقف الإسلام منه ، وذلك لنرجع إلى النبع الصافى مصدر حضارتنا وأساس هدايتنا .

ولما كان الكتاب عن القرآن الكريم فقد كان من الضرورى أن نتحدث عن وصف القرآن وعن فضله ، ولقد استفضت فى بيان أوصاف القرآن من القرآن نفسه ؛ فتعبير القرآن عن القرآن كله توجيه للمسلم وبيان له عن مصدر هدايته ، ووصف صادق لكتاب النور والهداية .

واستفضنا أيضا فى موضوع الذكر وموضوع الدعاء مستندين فى كل منهما إلى القرآن ، وذلك لأنهما تعبير من أهم وأصدق مظاهر التعبير عن العبودية لمالك الملك . ونحن فى عصرنا الراهن أشد ما نكون فى حاجة لتحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى فإن فيها الاستغناء به عمن سواه. فإذا اتجه المسلم الصادق إلى الله فقد استغنى به ، واعتز به ، ومن كان لله كان الله له : أليس الله بكاف عبده ؟ وإذا حقق المسلم العبودية لله فإن الله يتكفل بنصره .

إن تنصروا الله ينصركم .

ولينصرن الله من ينصره .

وكان ختام البحث عن توجيهات القرآن الكريم فى النصر بإذن الله .

وإنا لنرجو الله جلت قدرته وعظم سلطانه أن يوجه الأمة الإسلامية الوجهة التى ترضيه ، وأن يمدها بمدد من عنده ، وأن يكتب لها النصر ، وأن يعيد لها مجدها السابق .

إنه نعم المولى ونعم النصير .

د . عبد الحليم محمود

الفصل الأول

الجو الذى نشأ فيه الإسلام

١

الحنفاء [١] :

وأسلمت وجهى لمن أسلمت ... له الأرض تحمل صخراً ثقالا
دحاها فلما استوت شدها ... سواء وأرسى عليها الجبالا
وأسلمت وجهى لمن أسلمت ... له المزن تحمل عذباً زلالا
إذا هى سيقت إلى بلدة ... أطاعت فصبت عليها سجالا

بهذه الأبيات كان يترنم زيد بن عمرو بن نفيل ، ثم يستقبل البيت ويقول : لبيك حقاً حقاً تعبداً ورقاً . البر [٢] أرجو لا الخال [٣] ، وهل مهجر [٤] كمن قال [٥] ثم ينشد :

عذت بما عاذ به إبراهيم ... مستقبل الكعبة وهو قائم
يقول : أنفى لك عان راغم ... مهما تجشمنى فإنى جاشم [٦]

ثم يسجد

كان زيد بن عمرو عربيًّا أصيلا ، فهو ابن عم سيدنا عمر بن الخطاب . وهو أبو سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة . وكان أحد من اعتزل عبادة الأوثان ، وامتنع عن أكل ما ذبح باسمها ، وكثيراً ما أنكر على قريش ذبحها على غير اسم الله قائلا :

يا معشر قريش ، أيرسل الله قطر السماء ، وينبت بقل الأرض ، ويخلق السائمة

---

(١) من مصادر هذا الفصل : الأغانى جـ٣ ، ٥ ، فى الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين ، سيرة ابن هشام ، والروض الأنف ، تمهيد لتاريخ الفلسفة للمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق ، فجر الإسلام للمرحوم الدكتور أحمد أمين ، الملل والنحل للشهرستانى .

(٢) البر : الطاعة والخير .

(٣) الخال : الخيلاء .

(٤) المهجر : السائر فى الهاجرة .

(٥) قال : أقام فى القائلة .

(٦) الأغانى : الجزء الثالث ص ١٢٤ .

فيه ، وتذبحونها لغيره !

ولقد أثارت حالته هذه اهتمام بعض علماء الكلام من قديم الزمان ، وهم من أجل ذلك يذكرونه عند تعريفهم للنبى ، ويتساءلون : أخارج عن التعريف أم داخل فيه : يقول الجلال الدوانى فى تعريف النبى :

« هو إنسان بعثه الله تعالى إلى الخلق لتبليغ ما أوحاه إليه ، وعلى هذا لا يشمل من أوحى إليه ما يحتاج إليه لكماله فى نفسه ، من غير أن يكون مبعوثاً إلى غيره ، كما قيل فى زيد بن عمرو بن نفيل ، اللهم إلا أن يتكلف [1] »

ولعل من الأسباب التى وجهت بعض المتكلمين إلى ذكر زيد عند حديثهم عن النبوّة ما روى عن سعيد بن زيد بن عمرو قال : سألت أنا وعمر بن الخطاب رسول الله ﷺ عن زيد فقال :

« يأتى يوم القيامة أمة وحده » .

وسواء أكان نبياً أوحى إليه بما يكمل نفسه ، أم لم يكن نبيا – فإنه كان من هؤلاء الذين يتطلبون المعرفة الحقيقية . ويسعون وراءها جاهدين . كان يعتصر ذهنه ، ويشحذ شعوره يريد أن يحل ألغاز الكون ، ويكشف أسرار العالم ، ويجيب عن :

من أين ؟

وإلى أين ؟

ولم ؟

ولكنه يتلفت يميناً ، ويتلفت يساراً ، فلا يجد نفسه إلا فى بيداء مظلمة ، وفى ضلال محيط ، ويثور شعوره الدينى فينشد – وكأنه يصرخ أو يستغيث :

أرباً واحدا أم ألف رب ... أدين ، إذا تقسمت الأمور ؟
عزلت اللات ، والعزى جميعاً ... كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ، ولا ابنتيها ... ولا صنمى بنى عمرو – أزور
ولا هبلا أدين ، وكان رباً ... أنا فى الدهر ، إذ حلمى يسير

(١) العقائد القصدية : ص٣ .

عجبت ، وفى الليالى معجبات وفى الأيام ، يعرفها البصير
بأن الله قد أفنى رجالا كثيرا كان شأنهم الفجور
وأبقى آخرين ببر قوم ليربو منهم الطفل الصغير
وبينا المرء يفتر ثاب يوماً كما يتروح الغصن المطير
ولكن أعبد الرحمن ربى ليغفر ذنبى الرب الغفور
فتقوى الله ربكم احفظوها متى ما تحفظوها لا تبوروا
ترى الأبرار دارهم : جنان وللكفار : حامية سعير
وخزى فى الحياة ، وإن يموتوا يلاقوا ما تضيق به الصدور

ولكن الهداية إلى الدين القويم لم تكن إذ ذاك سهلة هينة .

وإذا كانت الوثنية ضلالا فأين الهداية ؟

وإذا ترك اللات والعزى وهبل فإلى أين يتجه ؟

ويستولى عليه شعور دينى ، ويغمره فيض من التطلع إلى المعرفة : فلا يجد مفراً من الهجرة يستنبئ فى أثنائها الظاعن والمقيم عله يجد من يرشده إلى سبيل الله القويم .

والقصة التالية توضح لنا – سواء أصحت أم لم تصح – الكثير من جوانب نفسه ، ومما كان يشعر به نحو اليهودية والنصرانية حينئذ :

وها هى ذى كما رواها صاحب الأغانى :

إن زيد بن عمرو خرج إلى الشام يسأل عن الدين لكى يتبعه فلقى عالماً من اليهود ، فسأله عن دينهم فقال : لعلى أدين بدينكم ، فأخبرنى بدينكم .

فقال اليهودى : إنك لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله .

فقال زيد بن عمرو : لا أفر إلا من غضب الله ، وما أحمل من غضب الله شيئاً أبداً ، وأنا أستطيع ، فهل تدلنى على دين ليس فيه هذا !

قال : ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً .

قال : وما الحنيف .

قال : دين إبراهيم .

فخرج من عنده وتركه ، فأتى عالماً من علماء النصارى فقال له نحواً مما قال لليهودى .

فقال له النصرانى : إنك لن تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من لعنة الله .

فقال : إنى لا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً أبداً وأنا أستطيع . فهل تدلنى على دين ليس فيه هذا .

فقال له نحوا مما قال اليهودى : لا أعلمه إلا أن يكون حنيفاً .

فخرج من عندهما وقد رضى بما أخبراه ، واتفقا عليه من دين إبراهيم ، فلما برز رفع يديه وقال :

اللهم إنى على دين إبراهيم .

استمر زيد يجاهد فى سبيل الوصول إلى الله .

كان يجاهد تارة بمنطقه وتفكيره ، وتارة بسؤاله كل من يصادفه من ذوى المعرفة الدينية ، كان يسأل الناس إذا أقام ، ويسألهم إذا ارتحل ، حتى انتهى فى النهاية إلى مذهب اطمأنت إليه نفسه فخاطب قريشاً قائلا :

« يا معشر قريش ، والذى نفسى بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى » .

ويقول الدكتور (طه حسين) عن زيد :

إنه كان « رجلا رقيقا ، لينا ، مرهف الحس ، ذكى القلب ، نقى الطبع ، مستعداً للإيمان الصادق ، مبغضاً للقديم ، شديد النشاط للتجديد ، شك فى وثنية قومه ، ثم جحدها ، والتمس ديناً صفواً ، وملة نقية ؛ وجعل ينكر على قريش ما كانت فيه ، فكانت قريش تسمع منه وتعرض ، ولا تحفل بما كان يقول .

وكان الخطاب بن نفيل ثبت له ، ثم قاومه ، ثم جد فى فتنته حتى أشقاه ، ثم حبسه فى مكة ، ثم أغرى به الشباب ، حتى اضطره إلى أن يستخفى ، وأن يحتال فى الفرار من مكة ، ليلتمس ما كان يحب من دين من عند اليهود والنصارى [1] .

وقد فر زيد بدينه الجديد — أو باستعداده للدين الجديد — وجعل يلتمس ما يحب عند اليهود مرة ، وعند النصارى مرة ، حتى استيئس من أولئك وهؤلاء . . . . » .

---

(١) عن مجلة الهلال سنة ١٩٣٧ م .

كيف انتهى زيد إلى حقيقة مذهبه ؟ وماذا كان سبيله إلى الاطمئنان الروحى ؟ وماذا كان يرى فى مشكلة المبدأ ، ومشكلة المصير ، ومشكلة الغاية ! عن كل ذلك يصمت التاريخ . . .

ولكن الذى لا شك فيه أن زيدا اطمأنت نفسه إلى منطق ، أو إلى إلهام فيما يتعلق بما وراء الطبيعة .

ولم يكن زيد الوحيد فى جزيرة العرب الذى بحث عن الله ، بل كان هناك كثير غيره ، كان هناك :

أمية بن أبى "الصلت الشاعر المشهور .

وكان على حسب ما يروى صاحب الأغانى :

« قد نظر فى الكتب وقرأها ، ولبس المسوح تعبداً » .

وكان ممن ذكر إبراهيم وإسماعيل والحنيفية ، وحرم الخمر وشك فى الأوثان وكان محققاً ، والتمس الدين ، وطمع فى النبوة ؛ لأنه قرأ فى الكتب أن نبياً يبعث من العرب ، فكان يرجو أن يكون هو » .

وشعره حافل بذكر الرسل والأنبياء ، والجنة والنار والثواب والعقاب ، حتى لقد قال ابن سلام :

« كان أمية كثير العجائب ، يذكر فى شعره خلق السموات والأرض ، ويذكر الملائكة ، ويذكر من ذلك مالم يذكره أحد من الشعراء ! » .

ونحن — وإن لم يصلنا كل شعره — يدل ما جمعه منه الأستاذ شلتس على الكثير من منازعه ، ومن شعره الذى يدل على اتجاهه :

ألا أيها الإنسان إياك والردى ... فإنك لا تخفى من الله خافياً
وإياك لا تجعل مع الله غيره ... فإن سبيل الرشد أصبح باديا
رضيت بك اللهم ربًّا ، فلن أرى ... أدين إلها غيرك الله ثانياً
أدين لرب يستجيب ، ولا أرى ... أدين لمن لم يسمع الدهر داعيا
وأنت الذى من فضل من ورحمة ... بعثت إلى موسى رسولا مناديا
فقلت له : يا اذهب وهارون فادعوا ... إلى الله فرعون الذى كان طاغيا

وقولا له : أأنت سويت هذه بلا وتد حتى اطمأنت كما هيا
وقولا له : أأنت رفعت هذه بلا عمد أرفق إذا بك بانيا
وقولا له : أأنت سويت وسطها منيراً إذا ما جنه الليل هاديا
وقولا له : من يرسل الشمس غدوة فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا
وقولا له : من ينبت الحب فى الثرى فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ويخرج منه حبه فى رءوسه وفى ذلك آيات لمن كان واعيا
وأنت بفضل منك نجيت يونساً وقد بات فى أضعاف حوت لياليا
وإنى لو سبحت باسمك ربنا لأكثر إلا ماغفرت خطائيا

ويقول مترجمه فى دائرة المعارف الإسلامية :

إنه يمكن قسمة قصائده بحسب موضوعها إلى قسمين كبيرين : أصغرهما يتكون من قصائد وأبيات قيلت فى مدح أشخاص ، وبخاصة فى مدح رجل من أغنياء مكة هو عبد الله بن جدعان ، وهى لا تختلف فى جوهرها ونظائرها عند غيره من شعراء العرب القدماء .

أما القسم الأكبر الذى يبدأ بالقصيدة الثالثة والعشرين من طبعة شلتس فليدل دلالة كاملة على النزعة التى يمكن تسميتها بالحنيفية .

وأساسها القول بإله واحد ، وهو رب العباد ، ونرى فيها صوراً شبيهة بالوحى عن مقام الله وملائكته ، وحكايات عن الخلق وآراء تتعلق بيوم القيامة والجنة والنار ، وفيها دعوة إلى عمل الخير ، وإشارات إلى عبر أخذ بعضها من أخبار العرب عن عاد وثمود ، وبعضها من قصص التوراة عن الطوفان وإبراهيم ولوط وفرعون .

وابن أبى الصلت مولع إلى جانب هذا بقص الحكايات على ألسنة الحيوانات . ونلاحظ فى شعره أيضاً ذكراً للأعمال السحرية » .

وكان أمية – كما كان زيد – يريد دين إبراهيم ، فلم يكن يهوديا ولا نصرانياً ومما يثبت هذا فى غير لبس ولا إبهام قوله :

كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفة زور ولكنه – على خلاف ما كنا

نتوقع – قد عادى الرسول ، وحاربه فغلبت عليه شقوته ، وصح فيه قول رسول الله :

« آمن شعره وكفر قلبه » .

ويخيل إلينا أنه قد ندم فى آخر حياته ندماً شديدا على موقفه ذاك من الرسول ، فتمنى أن لو كان – بدل معرفته وعلمه – راعياً فى رءوس الجبال يرعى الوعول ، لقد قال وهو على فراش الموت هذا الشعر البائس الحزين الرائع :

كل عيش وإن تطاول دهراً منتهى أمره إلى أن يزولا
ليتنى كنت قبل ما قد بدا لى فى رءوس الجبال أرعى الوعولا
اجعل الموت نصب عينيك واحذر غولة الدهر إن للدهر غولا

وكان أبو قيس بن أبى أنس من الحنفاء ، وهو من بنى النجار ، وكان ترهب ولبس المسوح ، وفارق الأوثان وهم بالنصرانية ، ثم أمسك عنها ، ودخل بيتاً له ، فاتخذه مسجداً لا يدخله طامث ولا جنب وقال : أعبد رب إبراهيم .

فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلم وحسن إسلامه ، وقال فى رسول الله ﷺ شعراً يمتدحه [1] :

ومن الحنفاء خالد بن سنان وهو من بنى عبس ، ويقول ابن قتيبة : وروى أن رسول الله ﷺ قال :

ذلك نبى أضاعه قومه . .

وأتت ابنته رسول الله ﷺ فسمعته يقرأ : (قل هو الله أحد) فقالت : كان أبى يقول ذا [2] .

بعض من رأى التدين بالنصرانية :

وكانت النزعة إلى الحنيفية شائعة فى جزيرة العرب ، ولكن من العرب من رأى التدين بالنصرانية أو اليهودية ، بيد أنهم لم يكونوا يدينون بواحدة منهما إلا بعد أن يجولوا فى شعاب التفكير ، ويضلوا فى متاهات ما وراء الطبيعة : فيروا بعد بحث وتفكير أن الأسلم التزام دين يأمنون فى رحابه من ضلال الأوهام :

(١) المعارف لابن قتيبة ص ٢٨ . (٢) المعارف لابن قتيبة ص ٢٩ .

ذكر ابن هشام المتوفى بالفسطاط سنة ٢١٨ هـ فى سيرته ص ٢٣٧ .

قال ابن إسحاق : واجتمعت قريش يوماً فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ، ويعكفون عنده ويدورون به ، وكان ذلك عيداً لهم فى كل سنة يوماً .

فخلص منهم أربعة نفر نجياً ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض ، قالوا : أجل . وهم : ورقة بن نوفل . . . وعبد الله بن جحش بن رئاب . . . وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو بن نفيل . . فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله : ما قومكم على شئ ، لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم ! ما حجر نطيف به لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يضر ، ولا ينفع ؟ يا قوم ، التمسوا لأنفسكم ديناً فإنكم والله ما أنتم على شىء . فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية ، دين إبراهيم .

فأما ورقة بن نوفل : فاستحكم فى النصرانية ، واتبع الكتب من أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب .

وأما عبد الله بن جحش : فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة . . فلما قدمها تنصر . .

وأما عثمان بن الحويرث : فقدم على قيصر ملك الروم ، فتنصر وحسنت منزلته عنده . .

وأما زيد بن عمرو بن نفيل : فوقف فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية ، وفارق دين قومه ، فاعتزل الأوثان ، والميتة والدم ، والذبائح التى تذبح على الأوثان ، ونهى عن قتل الموءودة ، وقال : أعبد رب إبراهيم : وبادى قومه بعيب ما هم عليه » .

كان من هؤلاء ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، وهو عربى أصيل من ذروة بيوتات قريش .

وهو — كما يروى صاحب الأغانى « أحد من اعتزل عبادة الأوثان فى الجاهلية وطلب الدين ، وقرأ الكتب ، وامتنع من أكل ذبائح الأوثان » .

طلب ورقة الدين ، ولم يكتف فى طلبه باللغة العربية ، بل لعل اللغة العربية إذ ذاك لم تكن تسعفه بما يريد من معرفة فتعلم العبرانية « وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب » .

ولم يكن أمر معرفته وعلمه مجهولا بين قومه ، ولذلك انطلقت خديجة بنت خويلد إليه بالنبى ﷺ : لتستفسر عما عرض للرسول من أمر الوحى ، فأفادها وطمأنها ، وتمنى أن لو عاش حتى يرى الرسول قد أمر بنشر دعوته ، لينصره نصراً مؤزراً .

وكان ورقة شاعراً ناضح التفكير فى شعره ، ومثال ذلك قوله :

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم ... أنا النذير ، فلا يغرركم أحد
لا تعبدن إلها غير خالقكم ، ... فإن دعوكم فقولوا : بيننا حدد [1]
سبحان ذى العرش ، سبحاناً نعوذ به ... وقبل قد سبح الجودى [2] والجمد
مسخر كل ما تحت السماء له ... لا ينبغى أن يناوى ملكه أحد
لا شىء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويودى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه ... والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ دان الشعوب له ... والجن والإنس تجرى بينها البرد [3]

ويروى أن رسول الله ﷺ سئل عنه فقال : « قد رأيته فى المنام كأن عليه ثياباً بيضا ، فقد أظن أن لو كان من أهل النار لم أر عليه البياض » .

لم يكن أمثال ورقة ، وأمثال زيد من النادرين فى العرب ، ولم يكونوا يستخفون بآرائهم ، فكثيراً ما كان يدور النقاش بينهم وبين قومهم ، فضلا عن دورانه بين بعضهم وبعض .

ولقد عاب زيد فيما يبدو ورقة على اعتناقه النصرانية ، وأراد منه التخلى عنها فقال : « أنا أستمر على نصرانيتى إلى أن يأتى النبى الذى تبشرنا به الأحبار » .

---

(١) المنع .
(٢) الجودى والجمد : جبلان .
(٣) البرد جمع بريد وهو الرسول .

وحينما اطمأن زيد إلى التوحيد ، وأعلن ذلك قال ورقة له :

رشدت وأنعمت ابن عمرو ، وإنما تجنبت تنوراً من النار حاميا
بدينك ربًّا ليس رب كمثله وتركك جنّان [1] الجبال كما هيا

٢

الحكماء :

كان الطابع العام لهؤلاء الذين ذكرنا : هو البحث عن الدين المستقيم ، والتطلع إلى الهداية السماوية ، ولكن ميدان التفكير الناضج فى أرجاء الجزيرة العربية كان أوسع من أن يكون مقصوراً على هؤلاء .

يقول الشهرستانى : « ومنهم – أى الفلاسفة – حكماء العرب ، وهم شرذمة قليلة ؛ لأن أكثرهم حكمهم فلتات الطبع ، وخطرات الفكر وربما قالوا بالنبوات » .

وحكماء العرب هؤلاء هم : العلماء الذين يرجع إليهم فيما يعرض من مشاكل ، وهم فى الجملة : أعظم العرب حظاً فى الثقافة .

وكان مثلهم فى الحكمة : مثل حكماء اليونان ، لقد أثرت عنهم الحكم القصيرة التى تركزت فيها التجربة والحنكة ، مثل : « مقتل الرجل بين فكيه » .

« من طلب شيئاً وجده وإن لم يجده يوشك أن يقع قريباً منه »

« الحرب مأيمة » .

« وإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ! » .

وإذا ما قارنا هؤلاء الحكماء بمن يماثلهم من حكماء اليونان وجدنا أنهم يتشابهون فى كثير من النواحى : يقول أفلاطون :

واجتمعوا – أى الحكماء – فى دلف وأرادوا أن يقدموا لأبولون فى هيكله بواكير حكمته ، فاختصوه بالآيات التى يرددها الناس الآن مثل :

« أعرف نفسك » و « لا تسرف » و « الصلاح عسير » فكانوا مصلحين

---

(١) جنان الجبال : الذين يأمرون بالفساد من شياطين الجن .

ومشرعين ، ولم يكونوا فلاسفة بمعنى الكلمة [١].

وكذلك كان حكماء العرب .

وقد روى عن حكماء العرب بعض الآراء التى تدل على تفكيرهم .

كان منهم عامر بن الظرب الذى يقول فيه الميدانى : كان من حكماء العرب ، لا تعدل بفهمه فهماً ولا بحكمه حكماً »

ومن كلامه فى استدلاله على وجود الله وعلى تصريفه للكون .

« إنى ما رأيت شيئاً قط خلق نفسه ، ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً ، ولا جائياً إلا ذاهباً ، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء » .

ومن حكماء العرب أكثم بن صيفى بن رباح .

وكان من حديثه – كما ذكر الألوسى – أنه لما ظهر النبى ﷺ بمكة ودعا إلى الإسلام بعث أكثم ابنه حبيشاً ، فأتاه بخبره . فجمع بنى تميم وقال :

يا بنى تميم ، لا تحضرونى سفيهاً ؛ فإنه من يسمع يخل [٢] . إن السفيه يوهن من فوقه ويثبط من دونه ، لا خير فيمن لا عقل له . كبرت سنى ودخلتنى ذلة ، فإذا رأيتم منى حسناً فاقبلوه ، وإن رأيتم منى غير ذلك فقومونى أستقم .

إن ابنى شفه هذا الرجل مشافهة ، وأتانى بخبره ، وكتابه يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى ، وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران ، وقد حلف (عرف) ذوو الرأى منكم أن الفضل فيما يدعو إليه ، وأن الرأى ترك ما ينهى عنه .

إن أحق الناس بمعونة محمد ومساعدته على أمره أنتم ، فإن يكن الذى يدعو إليه حقاً فهو لكم دون الناس ، وإن يكن باطلا كنتم أحق الناس بالكف عنه والستر عليه ، وقد كان أسقف نجران يحدث بصفته ، وكان سفيان بن مجاشع يحدث به قبله ، وسمى ابنه محمداً ، فكونوا فى أمره أولا ولا تكونوا آخراً . ائتوا طائعين قبل أن تأتوا كارهين .

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم ص٨ .

(٢) « من يسمع أخبار الناس ومعايبهم يقع فى نفسه عليهم المكروه » عن مجمل الأمثال للميدانى .

إن الذى يدعو إليه محمد لو لم يكن ديناً لكان فى أخلاق الناس حسناً . أطيعونى واتبعوا أمرى ، أسأل لكم أشياء لا تنزع منكم أبداً ، وأصبحتم أعز حى فى العرب ، وأكثرهم عدداً ، وأوسعهم داراً ، فإنى أرى أمراً لا يجتنبه عزيز إلا ذل ، ولا يلزمه ذليل إلا عز . إن الأول لم يدع للآخر شيئاً . وهذا أمر له ما بعده ، ومن سبق إليه غمر المعالى واقتدى به التالى والعزيمة حزم ، والاختلاف عجز .

فقال مالك بن نويرة : قد خرف شيخكم .

فقال أكثم : ويل للشجى من الخلى ، ولهفى على أمر لم أشهده ولم يسبقنى : فذهب مثلاً .

وكان منهم قس بن ساعدة الذى يقول فيه رسول الله ﷺ : كأنى أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أورق ، وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ، ما أجدنى أحفظه ، وخطبته بسوق عكاظ مشهورة : « أيها الناس اسمعو وعوا . . . إلخ » .

ودليله على وجود الله أيضاً مشهور : إنه يستدل بالأثر على المؤثر .

وهو يصف الإله فيقول : كلا بل الله إله واحد ليس بمولود ولا والد ، أعاد وأبدى ، وإليه المآب غداً .

ثم ينشد :

يا باكى الموت والأموات فى جدث عليهمو من بقايا برهم خرق
دعهم ، فإن لهم يوماً يصاح بهم كما ينبه من نوماته الصعق

وأما عبد المطلب جد الرسول وهو من حكماء العرب المشهورين فقد رويت عنه سنن أقر القرآن أكثرها : كالمنع من نكاح المحارم ، وقطع يد السارق ، والنهى عن قتل الموءودة . (١) .

ولم تكن الناحية الأخلاقية مهملة لدى الشعراء ، وزهير بن أبى سلمى يتحدث عنها فى كثير من شعره ، وهو القائل :

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ، ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر ، فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم الحساب ، أو يعجل ، فينقم

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ١١٠ .

ويقول فى ضرر الحرب والدعوة إلى السلم :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم [١]
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... وتضرى إذا ضريتموها فتضرم [٢]
فتعرككم عرك الرحى بثقالها ... وتلقح كشافا ، ثم تنتج فتئتم [٣]
فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم ... كأحمر عاد ، ثم ترضع فتفطم [٤]
فتغلل لكم مالا تغل لأهلها ... قرى بالعراق من قفيز ودرهم [٥]

٣

رأى الحمس :

وإذا كان ما سبق يعتبر من الجوانب المحدودة برغم كثرته . فإن قريشا قد غمرتها نزعة روحانية ، ففكرت فى أمر الدين وقداسته ، والبيت وحرمته ، وبعد تأمل وترو – ابتدعت رأى الحمس .

والحمس جمع أحمس ، والأحمس – كما يقول صاحب المختار – هو : الشديد الصلب فى الدين والقتال ، ولم يكن هذا الرأى الذى ابتدعوه إلا تحمساً دينياً ، وعاطفة روحانية قوية .

وكانوا يذهبون فيه – كما يقول السهيلى – « مذهب التأله والتزهد » . وكان مثلهم فى ذلك مثل من قال الله فيهم (ورهبانية ابتدعوها) سورة الحديد / ٢٧

قال ابن إسحق « وقد كانت قريش – لا أدرى قبل عام الفيل أم بعده ابتدعت

---

(١) المرجم من الحديث : المقول بطريق الظن ، لاعن تحقيق أى : وما حديثى عن الحرب وتخويفكم ويلاتها بالحديث المفترى ، بل أنتم قد علمتم ويل الحرب وذقتموها .

(٢) متى تهيجوا الحرب تهيجوها مذمومة ويشتد حرها وتضرم نارها .

(٣) الثقال : جلدة توضع تحت الرحى . كشافا سنتين متواليتين . تئتم : تلد توءمين والمعنى : تحمل مرتين فى عامين متتاليين وتلد فى كل منهما توءمين .

(٤) إن أمر هذه الحرب يطول وتنتج لكم غلمان مثلهم فى الشؤم كمثل عاقر ناقة صالح عليه السلام ، وتعيش هذه الغلمان حتى ترضع وتفطم ، يريد بذلك أن يكنى عن طول الحرب وشرورها .

(٥) ولن تغل الحب الذى يكال بالقفيز ، أو يباع بالدرهم ؛ إذ هى لاتنتج إلا الموت والهلاك .

رأى الحمس رأياً رأوه ، وأداروه ، فقالوا : نحن بنو إبراهيم ، وأهل الحرمة ، وولادة وقطان مكة وساكنوها ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ، ولا مثل منزلتنا ، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا ، فلا تعظموا شيئاً من الحل كما تعظمون الحرم ؛ فإنكم إن فعلتم ذلك استخف العرب بحرمتكم ، وقالوا : قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم .

فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها ، وهم يعرفون ويقرون بأنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم عليه السلام ، ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها ، وأن يفيضوا منها إلا أنهم قالوا : نحن أهل الحرم ، وليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرمة ، ولا نعظم غيرها كما نعظمها نحن الحمس ، والحمس أهل الحرم . ا هـ » .

ولقد كانوا فى سبيل ذلك يشقون على أنفسهم ، ويشقون على غيرهم : فيحرمون على أنفسهم أشياء ، ويفرضون عليها أخرى ، وكذلك كانوا يفعلون ، بالنسبة للحاج وللمعتمر .

قال ابن إسحق : « ثم ابتدعوا فى ذلك أموراً لم تكن لهم حتى قالوا : لا ينبغي للحمس أن يأتقطوا الأقط [1] ولا يسلئوا السمن وهم حرم ، ولا يدخلوا بيتاً من شعر ، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا فى بيوت الأدم [2] ما كانوا حرماً .

ثم رفعوا فى ذلك فقالوا : لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل إلى الحرام إذا جاءوا حجاجا أو عماراً ، ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا فى ثياب الحمس ، فإن لم يجدوا منها شيئاً طافوا بالبيت عراة ، فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس ، فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحل – ألقاها إذا فرغ من طوافه ، ثم لم ينتفع بها ، ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبداً .

فحملوا على ذلك العرب ، فدانت به ، ووقفوا على عرفات ، وأفاضوا منها . وطافوا بالبيت عراة أما الرجال فيطوفون عراة ، وأما النساء فتضع إحداهن ثيابها

---

(١) الأقط : الجبن : لايصنعون الجبن ولا يصنعون السمن .

(٢) بيوت الأدم : الأخبية التى تصنع من الجلد .

كلها إلا درعاً مفرجاً عليها ثم تطوف فيه .

وكان الغرض من طوافهم عراة ، إن لم يجدوا ثياب أحمس – هو طرح الثياب التى اقترفوا فيها الذنوب ، فقد تدنست بما أتوا من معصية .

٤

حلف الفضول :

هذه العاطفة الدينية تبعها كلازم من لوازمها – عمل أخلاقى كريم قد بلغ من السمو حداً لا يكاد يحدث فى التاريخ إلا نادراً : إننا نريد أن نتحدث عن حلف الفضول . قال صاحب الروض الأنف :

وكان حلف الفضول [1] هذا قبل البعث بعشرين سنة ، وكان أكرم حلف وأشرفه ، وأول من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب .

وكان سببه : أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاصى بن وائل ، وكان ذا قدر بمكة وشرف ، فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الزبيدى الأحلاف : عبد الدار ومخزوماً وجمح وسهماً ، وعدى بن كعب ، فأبوا أن يعينوه على العاصى ، وزبروه (زجروه) . فلما رأى الزبيدى الشر أوفى على أبى قبيس عند طلوع الشمس ، وقريش فى أنديتهم حول الكعبة ، فصاح بأعلى صوته :

يا آل فهر ، لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائى الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحجر والحجر !
إن الحرام لمن تمت كرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام فى ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقال :

---

(١) يذكرون فى سبب تسمية هذا الحلف بهذا الاسم : إن جرهما فى الزمن الأول ، قد سبقت قريشا إلى مثل هذا الحلف ، فتحالف منهم ثلاثة وهم ومن تبعهم ، أحدهم : الفضيل ابن فضالة ، والثانى الفضل بن وداعة ، والثالث ابن الحارث ، وقيل : بل هم : الفضل بن شراعة ، والفضل بن وداعة ، والفضل بن قضاعة . فلما أشبه حلف قريش هذا حلف هؤلاء الجرهميين سمى حلف الفضول .

وقيل : بل سمى كذلك لأنهم تحالفوا أن ترد الفضول على أهلها ، وألا يغزو ظالم مظلوماً .

ما لهذا مترك !

فاجتمعت هاشم ، وزهرة ، وتيم بن مرة ، فى دار ابن جدعان فصنع لهم طعاماً وتعاقدوا ، وكان حلف الفضول ، وكان بعدها أن أنصفوا الزبيدى من العاصى (١) » .

ويقول ابن هشام راوياً عن ابن إسحاق :

تداعت قبائل من قريش إلى حلف ، فأجمعوا له فى دار عبد الله بن جدعان بن عمر . لشرفه وسنه ، فكان حلفهم عنده (بنو هاشم ، وبنو عبد المطلب ، وأسد بن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة) فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه ؛ حتى ترد إليه مظلمته ، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول » .

كان بحق – كما يقول السهيلى أكرم حلف وأشرفه . ومن أجل ذلك قال رسول الله ﷺ فى شأنه :

« لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت » .

---

(١) عن الروض الأنف .

الفصل الثاني

تصحيح الفكرة العامة عن العرب

١

الفكرة العامة عن العرب وتصحيحها :

ومع كل ذلك فإنه لايخفى علينا أن الفكرة العامة عن العرب : هى أنهم كانوا فى تدهور دينى لا حد له :

لقد كانوا يشربون الخمر .

وكانوا يعبدون الأصنام ، كانوا يعبدون قطعاً من الحجارة منحوتة بأيديهم . ويدعونها آلهة ويعبدونها .

وهل من دليل على فتورهم الدينى أوضح من تركهم أبرهة يسير إلى البيت الذى يقدسونه ويعظمونه ليهدمه بدل أن يمتشقوا الحسام لصده ؟ إنهم تركوه وما يريد دون أن يثيروها عليه شعواء !

هذه شبهات تعلق بالذهن وتثار فى كل آونة ، ولابد من أن نتحدث عنها :

أما الخمر فقد تركتها طائفة فى الجاهلية ، ودعت إلى تركها . ومنهم قيس بن عاصم التميمى ، وصفوان بن أمية الكنانى ، وعفيف بن معد يكرب الكندى ، وغيرهم ومما يقول قيس فيها :

وجدت الخمر جامحة وفيها خصال تفضح الرجل الكريما

إلى آخر القصيدة .

أما الأصنام فلم يكن العرب يعبدونها لذاتها . ولم تكن عندهم مجرد قطعة من حجر ؛ وإنما اتخذوها على (شكل الهياكل العلوية[1]) فكانوا يعبدونها باعتبارها رمزاً «للهياكل العلوية» .

وكانوا يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى

أما مسألة تركهم أبرهة فإن الصورة التى عند العامة فى هذا الأمر غير صحيحة . وللحق والتاريخ نقول :

إن أبرهة أراد أن يصرف العرب عن الحج إلى بيت الله الحرام ومن أجل ذلك

(١) الشهرستانى .

« بنى – كما يقول ابن هشام – القليس بصنعاء ، فبنى كنيسة[1] لم يُرَ مثلها فى زمانها شىء من الأرض ، ثم كتب إلى النجاشى : إنى قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب »

وتحدث العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشى وثار بهم الغضب : فخرج رجل من كنانة حتى أتى القليس فقعد فيها : أى أحدث فيها : يريد أن يعرف أبرهة أنها ليست لذلك بأهل » .

وكان مافعل هذا الكنانى يعبر عما كان يريد الكثيرون من العرب إذ ذاك ، ولكنه أغضب أبرهة غضباً لا حد له . وحلف ليهدمن البيت الحرام . وندع بعد ذلك ابن هشام يتحدث :

« وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفظعوا به ، ورأوا جهاده حقًّا عليهم حين سمعوا أنه يريد هدم الكعبة ، بيت الله الحرام .

فخرج إليهم رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له (ذو نفر) ، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة ، وجهاده عن بيت الله الحرام ، ومايريد من هدمه وإخرابه ، فأجابه إلى ذلك من أجابه ، ثم عرض له فقاتله ، فهزم ذو نفر وأصحابه . .

ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ماخرج له ، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمى فى قبيلة خثعم : شهران ، وناهس ، ومن تبعه من قبائل العرب ، فقاتله فهزمه أبرهة . .

فلما نزل أبرهة المغمس (بالقرب من مكة) . . همت قريش وكنانة وهذيل ، ومن كان بذلك الحرم – بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لاطاقة لهم به . فتركوا ذلك .

نرى من هذا أن العاطفة الدينية عند العرب لم تكن فاترة ضعيفة إلى الحد الذى يتصوره بعض المؤرخين والكتاب .

---

(١) سميت القليس لارتفاع بنائها ، وعلوها ، وكان أبرهة ينقل إليها الرخام المجذع ، والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام ، وكان من موضع هذه الكنيسة على فراسخ . وكان يستخدم مع أهل اليمن العنف الذى لاحد له ، حتى لقد كان يقطع يد العامل إذا طلعت عليه الشمس قبل أن يأخذ فى عمله .

٢

الأديان فى جزيرة العرب :

على أن الذى ينبغى أن يلاحظ أن جزيرة العرب لم تكن كلها وثنية : «كانت النصرانية فى ربيعة وغسان ، وبعض قضاعة .

وكانت اليهودية فى حمير وبنى كنانة وبنى الحارث بن كعب وكندة .

وكانت المجوسية فى تميم : منهم زرارة ، وحاجب بن زرارة ، منهم الأقرع بن حابس كان مجوسيًّا .

وكانت الزندقة فى قريش أخذوها من الحيرة[1] .

ومن العرب من كان يدين بالرجعة : يقول صاحب لسان العرب : «والرجعة مذهب قوم من العرب فى الجاهلية معروف عندهم» .

ولم يكن القول بالجبر أو القول بالاختيار بعيداً عن العقلية العربية :

يقول يحيى بن متى راوية الأعشى : كان الأعشى قدريًّا وكان لبيد مثبتاً ، قال لبيد :

من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضل

وقال الأعشى :

استأثر الله بالوفاء وبالعدْ ل وولى الملامة الرجلا

والحق : أن جزيرة العرب لم تكن – كما يُظن عادة – بمنأى عن التفكير الدينى القوى إنكاراً وجحوداً ، أو إثباتاً وتأييداً ، وسنرى فيما بعد إيضاحاً لجوانب أخرى من تفكيرهم الدينى عندما نتحدث عن موقف القرآن منهم .

ونريد الآن أن نذكر آراء بعض الكتاب فى شأن العرب : نستأنس بها فيما ذكرنا .

---

(١) ابن قتيبة : كتاب المعارف .

٣

بعض الآراء عن العرب :

يقول الجاحظ : «وذكر الله تعالى حال قريش فى بلاغة المنطق ورجاحة الأحلام ، وصحة العقول .

وذكر العرب ومافيها من الدهاء والنكراء[١] والمكر ، ومن بلاغة الألسنة واللدد عند الخصامة فقال :

(فإذا ذهب الخوفُ سلقوكم بألسنة حداد)[٢]

ثم ذكر خلابة ألسنتهم واستمالتهم الأسماع بحسن منطقهم فقال :

(وإن يقولوا تسمع لقولهم)[٣] ثم قال :

(ومن الناس مَن يعجبك قوله فى الحياة الدنيا) البقرة/٢٠٤ مع قوله (وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل[٤]) البقرة/ ٢٠٥

وقال جرجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية :

«وقد يتبادر إلى الذهن أن أولئك البدو كانوا أهل جهالة وهمجية لبعدهم عن المدن ، وانقطاعهم للغزو والحرب ، ولكن يظهر مما وصل إلينا أنهم كانوا كبار العقول ، أهل ذكاء ، ونباهة واختبار وحنكة ، وأكثر معارفهم من ثمار قرائحهم ، وهى تدل على صفاء أذهانهم وصدق نظرهم فى أحوال الإنسان مما لايقل عن نظر أعظم الفلاسفة : فإن قول زهير بن أبى سلمى فى معلقته : « رأيت المنايا خبط عشواء » إلى قوله :

«وإن خالها تخفى على الناس تعلم[٥] » لايقل شيئاً عن أحكام أكابر الفلاسفة » جزء ١ ص ٢٩ .

---

(١) النكراء : الدهاء والفطنة .

(٢) سورة الأحزاب آية : ١٩ .

(٣) سورة المنافقون آية : ٤ .

(٤) البيان والتبيين ج ١ .

(٥) نذكر هنا الأبيات التى أشار إليها الكاتب نقلاً عن كتاب المعلقات ليرى القارئ بنفسه مبلغ ماوصل إليه زهير من عمق :

ويقول فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق :

« فى الشعر الجاهلى معان سامية وحكمة صادقة ، ومن يقرأه خالى الذهن من كل ماقيل فيه يقْضِ العجب من ذكاء منشئيه وسعة خيالهم . وإفضائهم النظر فى تأليف المعانى والتصرف فى فنون الكلام » .

وكما اعتمد الجاحظ على القرآن فيما ذكرناه له من رأى سابق — فإن الدكتور (طه حسين) يرى أن القرآن أصدق مرآة للحياة الجاهلية .

وهذه القضية — كما يقول الدكتور (طه حسين) غريبة حين تسمعها ، ولكنها بديهة حين تفكر فيها قليلاً .

فليس من اليسير — أن نفهم أن الناس قد أعجبوا بالقرآن حين تليت عليهم آياته ، إلا أن تكون بينهم وبينه صلة : هى هذه الصلة التى بين الأثر الفنى البديع وبين الذين يعجبون به حين يسمعونه أو ينظرون إليه .

وليس من اليسير — أن نفهم أن العرب قد قاوموا القرآن وناهضوه وجادلوا النبى فيه إلا أن يكونوا قد فهموه ، ووقفوا على أسراره ودقائقه .

وفى القرآن رد على الوثنيين فيما كانوا يعتقدون من الوثنية .

وفيه رد على اليهود

= سئمت تكاليف الحياة . ومن يعش ثمانين حولاً — لا أبالك — يسأم
وأعلم مافى اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم مافى غد عم
رأيت المنايا خبط عشواء : من تصب تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم
ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ، ومن لايتق الشتم يشتم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنهم ويذمم
ومن يوف لايذمم ومن يهد قلبه إلى مطمئن البر لايتجمجم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلم
ومن يجعل المعروف فى غير أهله يكن حمده ذمًّا عليه ويندم
ومن يعص أطراف الزجاج فإنه يطيع العوالى ركبت كل لهذم
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ، ومن لايظلم الناس يظلم
ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ومن لايكرم نفسه لاينكرم
ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وفيه رد على النصارى

وفيه رد على الصابئة والمجوس .

وهو لايرد على يهود فلسطين ، ولا على نصارى الروم ومجوس الفرس ، وصائبة الجزيرة وحدهم ؛ وإنما يرد على فرق من العرب كانت تمثلهم فى البلاد العربية نفسها . .

ولكن القرآن لايمثل الحياة الدينية وحدها ؛ وإنما يمثل شيئاً آخر غيرها لانجده فى هذا الشعر الجاهلى : يمثل حياة عقلية قوية ، يمثل قدرة على الجدال والخصام أنفق القرآن فى جهادها حظًّا عظيماً :

أليس القرآن قد وصف أولئك الذين كانوا يجادلون بقوة الجدال ، والقدرة على الخصام ، والشدة فى المحاورة ؟

وفيم كانوا يجادلون ويخاصمون ويحاورون ؟ فى الدين وفيما يتصل بالدين من هذه المسائل المعضلة التى ينفق الفلاسفة فيها حياتهم دون أن يوفقوا لحلها : فى البعث ، فى الخلق ، فى إمكان الاتصال بين الله والناس ، فى المعجزة وما إلى ذلك »

ويمضى الدكتور (طه حسين) فى الحديث عن تصوير القرآن للأمة العربية من الناحية الاقتصادية ومن ناحية اتصال العرب بغيرهم من الأمم ، ويتمشى مع القرآن فى أن العرب لم يكونوا كلهم سنناً واحدة ، بل كان فيهم الأعراب فى جفوتهم وغلظتهم وإمعانهم فى الكفر والنفاق ، وقلة حظهم من العاطفة الرقيقة التى تحمل على الإيمان والتدين :

(الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله)[1]

ونعود إلى الجاحظ فى مقارنة له بين العرب فى عصرها الجاهلى وغيرهم من الأمم ، وهذه المقارنة : قد اعتقد قوم أنها مقارنة بين العرب كجنس : أى بين العرب فى ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم وبين غيرهم ، ولكن ذلك خطأ واضح .

فالجاحظ يقارن بين العرب فى طور من أطوارهم هو الطور الجاهلى فحسب وبين غيرهم ، ولذلك لم يتحدث فى هذه المقارنة عن الدين ، أو فلسفة الكندى وهو

(١) سورة التوبة آية : ٩٧ .

عربى صميم أو فلسفة المعتزلة ؛ فقد كانوا منها على حظ وافر .

ولم يتحدث عن تشريع أبى حنيفة أو الشافعى ، وقد كان فى ذلك – لو أراد – ميدان من أخصب الميادين لتأييد رأيه .

يقول الجاحظ : «إن الهند لهم معان مدونة ، وكتب مجلدة ، لاتضاف إلى رجل معروف ، ولا إلى عالم موصوف ؛ وإنما هى كتب متوارثة وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة .

ولليونان فلسفة ، ولكن صاحب المنطق نفسه بكىء اللسان ، ولاموصوف بالبيان .

وفى الفرس خطباء إلا أن كل كلام للفرس ، وكل معنى للعجم فإنما هو عن طول فكرة ، وعن اجتهاد وخلوة .

وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام . وليست هناك معاناة ولامكابدة ، ولا إجالة فكر ولا استعانة ؛ وإنما هو أن يصرف همه إلى الكلام فتأتيه المعانى إرسالا وتنثال عليه الألفاظ انثيالا » .

من كل ما سبق نرى أن العرب لم يكونوا – كما يظن كثير من الناس – أهل جهل مطبق أو ضلالة شاملة ؛ وإنما كانوا أصحاب شعر وحكمة ودين ، كان فيهم بلاغة المنطق ، ورجاحة الأحلام ، وصحة العقول ، وشعور دينى قوى يضحون فى سبيله بأموالهم وأنفسهم .

٤

العرب على حسب ما نعتقد :

أما مانريد أن ننتهى إليه من كل ماسبق فهو الرأى الذى رآه فضيلة المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق فى كتابه : «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية» :

«ومهما يكن من أمر العرب عند ظهور الدين المحمدى فإنهم لم يكونوا فى سذاجة

الجماعات الإنسانية الأولى من الناحية الفكرية التى تهمنا ، يدل على ذلك ما عرف من إيمانهم وماروى من آثارهم الأدبية »

وكان العرب عند ظهور الإسلام : « يتشبثون بأنواع من النظر العقلى يشبه أن تكون من أبحاث الفلسفة العلمية ، لاتصالها بما وراء الطبيعة من الألوهية ، وقدم العالم أوحدوثه والأرواح ، والملائكة ، والجن ، والبعث ، ونحو ذلك .

٥

الدهماء لايمثلون الأمة :

ومع ذلك فإننا نعلم حق العلم أن الأكثرية العظمى فى جزيرة العرب كانت من البدو الرحل الذين شغلهم البحث وراء لقمة العيش عن التفكير فى الدين وفيما وراء الطبيعة ، وليس من الطبيعى أن تطلب من شخص يقاسى فى عنف شظف الحياة — أن يفكر تفكيراً مجرداً .

إن الأغلبية العظمى من جزيرة العرب صحراء قاحلة ، وليس لساكنيها استقرار مّا ، وليس بها أمن مستتب ، والحروب والغارات فى جبالها ووهادها لاتكاد تنقطع ، فمن الطبيعى ألا يكون عند هؤلاء أوقات فراغ يقضونها فى التفكير فيما وراء الطبيعة .

ولكن إذا كنا لا نتخذ من عقلية الفلاح الحافى القدمين الذى قوس انحناؤه على الفأس ظهره مثالاً لحضارة المصريين وثقافتهم ، سواء كان ذلك فى العصر القديم ، أو فى العصر الحديث ، وإذا كنا لانتخذ من الفرنسى الريفى الجاهل مثالاً لحضارة فرنسا وثقافتها — فإنه من غير الطبيعى أن يكون البدو الرحل مقياساً للثقافة العربية فيما قبل الإسلام .

الفصل الثالث

فى العقيدة

١

وصف القرآن :

كانت جزيرة العرب – كما تحدثنا سابقاً – تعج بمختلف الآراء الدينية ، كان فيها النصرانية واليهودية والحنفاء ، وكان فيها الزندقة والدهرية ، ومن ينكرون البعث ، ومن ينكرون إرسال الرسل ؛ وكان فيها من يقول بالرجعة ، ومن يقول بالجبر ، ومن يقول بالاختيار .

كان فيها توحيد وإلحاد ومؤمنون ومشركون ، ولكن هؤلاء وأولئك كانوا جميعاً ينتظرون بارقة تشرق عليهم فتبدد حيرتهم ، وتحسم مابينهم من جدل واختلاف .

فى هذه الآونة قام رسول الله ﷺ بدعوته ، ودعوته لم تنشأ عن تفكير إنسانى شخصى ؛ إنما هى وحى أنْزِل عليه .

وهى معصومة لأنها وحى ، إنها معصومة عن التخبط فى الآراء ، معصومة عن متاهات الخيال .

والقرآن وهو كتابها المقدس يقول فيه رسول الله ﷺ كما روى عن على رضى الله عنه :

« عليكم بكتاب الله : فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله .

هو حبل الله المتين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم .

هو الذى لاتزيغ به الأهواء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ولاتنقضى عجائبه .

مَن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن خاصم به أفلح ، ومن دُعِىَ إليه هدى إلى صراط مستقيم » ا . هـ

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « إن هذا القرآن

مأدبة الله ، فاقبلوا مأدبته مااستطعتم ؛

إن هذا القرآن حبل الله ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا يزيغ فيستعتب ، ولا يعوج فيقف ، ولاتنقضى عجائبه ولايخلق من كثرة الرد ،

اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته ، كل حرف عشر حسنات ، أما أنى لا أقول ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » رواه الحاكم .

٢

تواتر القرآن :

وقد وصل إلينا القرآن بطريق التواتر ، بحيث لا يمكن الشك مطلقاً فى أنه وصل إلينا كمانزل على سيدنا محمد ﷺ ، دون زيادة أو نقص .

والمستشرقون – برغم تحامل الكثيرين منهم على الإسلام – لايجدون مطعناً صحيحاً من تلك الجهة أبداً .

ولقد قال المستشرق الفرنسى الأستاذ «ديومبين» بحق ، فى كتابه عن الإسلام :

إن المنصف لامناص له من أن يقرّ بأن القرآن الحاضر هو القرآن الذى كان يتلوه محمد ﷺ .

٣

السبب فى أن مهمة الرسول كانت شاقة :

ومع استشراف نفوس العرب إلى هاد يقودهم إلى السبيل السوى فإن مهمة الرسول ﷺ لم تكن سهلة ميسورة ، وذلك :

(١) لأن النفوس إذا ألفت شيئاً فترة طويلة من الزمن لم يكن من السهل انصرافها عنه .

والإلف – لا العقل ولا المنطق – هو الذى يعرقل دائماً عمل المصلحين خلال التاريخ .

(ب) وكان التنافس بين الأسر فى قبيلة واحدة ، وبين القبائل المختلفة من العوامل أيضاً التى دفعت الكثيرين إلى المعارضة .

(جـ) ورأى اليهود أن اعتزازهم بدينهم سينهار إذا انتشر الدين الجديد .

(د) ورأى النصارى أن مصير دينهم هو الآخر الاندثار

(هـ) وضاق تفكير طائفة كبيرة من العرب ، فلم يروا العظمة إلا فى الثروة ، ولم يكن محمد ، ﷺ ، ثرياً ، فقالوا :

(لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم)[1]

وتضامنت عوامل الشر هذه كلها ، وتألبت ، وأرادت – طوال مدة الدعوة – القضاء عليها .

٤

القيمة الذاتية للدعوة الإسلامية :

ولكن الدعوة الإسلامية كانت تحمل فى طياتها من القيمة الذاتية ما يفرضها ويكتب لها الانتشار والسيادة .

إنها تمتاز عن النصرانية المنتشرة إذ ذاك – بنظام اقتصادى خلت منه الأنانية ، وبمنطق عقلى لايوجد فيما كان مأثوراً حينئذ من كلام السيد المسيح عليه السلام ، ثم هى تصحيح للمسيحية التى كانت موجودة إذ ذاك محرفة ، كما سنرى فيما بعد .

وهى تمتاز عما كان موجوداً ، إذ ذاك من اليهودية بما فيها من بساطة ، ونضرة ، وتنزيه لله ورسله وأنبيائه . لايوجد مايماثله فى العهد القديم .

ثم هى رجوع باليهودية إلى الحق قبل أن يحرفها ذوو أهلها .

وهى هداية للحنفاء إلى دين إبراهيم الذى يتطلعون إليه .

---

(١) سورة الزخرف آية: ٣١ .

ثم هى معصومة وليست رأياً يجوز بالبحث أن يكون وهماً من الأوهام .

وهى بعد كل ذلك نظام كامل للحياة الإنسانية : فيها العقيدة ، وفيها التشريع ، وفيها الأخلاق ، إنها ترضى العقل وترضى الوجدان .

٥

وسائل الدعوة لهداية العرب :

ولكن العرب قابلوها بصراع ، فاتخذت الدعوة الإسلامية من أجل هدايتهم أحكم الوسائل .

نبههم إلى أنه ليس من المنطق أن يكون الإلف ، وأن تكون العادة أو العرف – مقياساً للحق ؛ فليس من المنطق إذا قيل لهم – اتبعوا ما أنزل الله – أن يقولوا « بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » لأنه من الجائز أن يكون آباؤهم « لايعقلون شيئاً ولا يهتدون »

وليس من المنطق أن يقولوا : (إنَّا وجدْنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) الزخرف/٢٣

وسخر القرآن من الذين حرموا على أنفسهم مزية الفهم والتبصر ، فقال فى أسلوب لاذع :

(مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) الجمعة/٥

ثم أضاف الإسلام إلى ذلك تقدير المسئولية الفردية ، ليجتث بذلك كل محاولة من الفرد لإلقاء التبعة على الجماعة ، أو على البيئة ، أو على الآباء والرؤساء :

(ألّا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ماسعى) النجم/٣٨–٣٩ .

(فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره) الزلزلة/٧–٨ .

ثم صرح فى وضوح واضح بالمسئولية ، فيما يتعلق بالآراء خاصة ، ورتب

العقاب الشديد على من قلد غيره فى ضلاله وأهوائه فقال تعالى :

(وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول : يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : لولا أنتم لكنا مؤمنين ، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ، وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا ، بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ، ونجعل له أنداداً وأسرّوا الندامة لما رأوا العذاب ، وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ماكانوا يعملون)[1]

وإذا كان الإسلام قد قرر المسئولية الفردية – أى أن كل إنسان مسئول عن عمله – فإنه مع ذلك لم يخل الفرد من المسئولية بالنسبة لغيره : فالرسول ﷺ يمثل الجماعة الإنسانية بسفر على سفينة أخذ بعضهم فى إفسادها : فإن أخذوا على يديه نجا ونجوا ، وإن تركوه هلك وهلكوا : عن النعمان بن بشير ، رضى الله عنهما أن النبى ﷺ ، قال :

« مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها – كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا » البخارى وغيره .

ويقول الله تعالى :

(واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) الأنفال/ ٢٥

ويقول فى عنف عنيف :

(يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة ، عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون)[2]

روى أن عمر رضى الله عنه قال حين نزلت هذه الآية :

---

(١) سورة سبأ الآيات : ٣١ – ٣٣ .

(٢) سورة التحريم : آية : ٦ .

«يارسول الله ، نقى أنفسنا فكيف لنا بأهلينا ؟»

فقال عليه الصلاة والسلام :

«تنهونهن عما نهاكم الله عنه ، وتأمرونهن بما أمركم الله ، فيكون ذلك وقاية بينهن وبين النار» .

على أن الرسول ﷺ يصور هذا النوع من المسئولية تصويراً جميلاً فى غير ماحديث ، إنه يصور الأمة فى توادها وتراحمها بجسم إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

وهو يقول فى روعة أخاذة :

«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»

ثم يفصل هذا الإجمال ويضرب بعض الأمثلة .

فالإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل فى بيته راع ومسئول عن رعيته ، والزوجة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته ،

إذن الآباء والأجداد ليسوا مقياس الحقيقة ، وكذلك العرف والعادة ، والفرد مسئول عمايفعل ، وكل إنسان مأمور بأن يصلح من نفسه ويصلح من أمر الآخرين .

فى هذا الجو أخذ محمد ﷺ ينشر دعوته .

٦

الدعوة الإسلامية دعوة موحِّدة :

وهى دعوة موحدة لامفرقة ، إنها دعوة نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى عليهم السلام .

(شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا ، والذى أوحينا إليك ، وماوصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)[1] .

(١) سورة الشورى آية : ١٣ .

وعلام الاختلاف ، والإسلام دعوة لاتهدف إلا إلى عبادة الله وعدم الشرك به وعدم اتخاذ أرباب من دونه ؟

(قل : يأهل الكتاب ، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئاً ، ولايتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون)[١]

هذه الدعوة الإسلامية التى هى دعوة الرسل من قبل تقرر أصولاً فى ناحية العقيدة ، وشعائر للعبادة ، ومبادئ فى القانون ، وقواعد للأخلاق ، والذى يعنينا هنا على الخصوص هو العقيدة .

٧

إثبات الرسالة :

إن أشق مرحلة يصادفها كل رسول من الرسل إنما هى إقناع الناس برسالته ، وقد اختلفت وسائل هذا الإقناع ، واختلفت أساليبه ، وقد بدأ الرسول ﷺ كأسلافه بتقرير أنه رسول ، وأنه متصل بالسماء ، وأن الوحى ينزل عليه تباعاً .

وقد أرسله الله تعالى لحكمة سامية قد رددها القرآن فى غير ماموضع :

هى تزكية النفوس وتطهيرها ، تزكيتها وتطهيرها خلقيًّا ، واجتماعيًّا ، مؤسساً ذلك على تطهيرها وتزكيتها من ناحية العقيدة .

(لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين)[٢]

(ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم)[٣]

ومن أجل ذلك كان إرساله رحمة للعالمين :

---

(١) سورة آل عمران آية : ٦٤ .

(٢) سورة آل عمران آية : ١٦٤ .

(٣) سورة البقرة : ١٢٩ .

(وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين) الأنبياء/ ١٠٧

لكن العرب سخروا من دعوته.. وكان لابد من أن يفحمهم بآيات من آيات الله ، فلم تخرج هذه الآية عن أن تكون القرآن .

لقد تحداهم به فى عنف ، وتحداهم – متدرجاً بهم – من أن يأتوا بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، إلى أن يأتوا بعشر سور مثله ، ثم انتهى بهم أخيراً إلى أن يأتوا بسورة من مثله ، قال تعالى :

(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)[١]

(أم يقولون : افتراه ؟ قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين)[٢]

(وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعو شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين)[٣]

---

(١) سورة الإسراء آية : ٨٨ . (٢) سورة هود آية : ١٣ .

(٣) سورة البقرة آيتا : ٢٣ ، ٢٤ . فى هذه الآيات قرر القرآن لفظ : (مثل) والمثلية لاتختص بجانب دون جانب ، وإنما تعم جميع المناحى .

والواقع أن النقاش فى القرآن معجز بأسلوبه ، أو بمعانيه أو بقصصه أو بأخباره عن المغيبات ، أو بغير ذلك من وجوه – إنما هو : نقاش لايتمشى مع الفكرة القرآنية التى هى فى التماثل من جميع النواحى .

قال صاحب البحر المحيط :

(والمثلية فى حسن النظم ، وبديع الوصف ، وغرابة الأسلوب ، والأخبار بالغيب : مما كان وما يكون : وما احتوى عليه : من الأمر والنهى ، والوعد والوعيد ، والقصص ، والحكم والمواعظ ، والأمثال ، والصدق ، والأمن من التحريف والتبديل) ج ١ ص ١١٤ – ١٠٥ .

ومنشأ الأختلاف ، فى تحديد وجوه الإعجاز فى القرآن – راجع إلى إختلاف درجة الاستعدادات الفطرية ، والاتجاهات الفكرية ، لإدراكها ومعرفتها .

فمثلاً : من وجد القرآن مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، والإنجيل ، وأخبار السابقين ، والغيبيات التى لاتحيط بها البشرية علماً – حصر وجوه الإعجاز فيما أدرك .

ومن نظر إلى القرآن من ناحية اللفظ ، وحسن السبك ، وجزالة الأسلوب وماله من روعة تملك على السامع شعوره ووجدانه – حصر الإعجاز فى ذلك . ومن أجال فكره فيما حواه القرآن من الأسرار الكونية التى تكشف عنها العلوم والبحوث أيا كانت فهو مصدق لما فى الطبيعة ، والفطرة (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) واتجه هذا الاتجاه . . . إلخ متفرقين =

ولم الشك فى أمر الرسول ﷺ مع أنه لو أخبرهم : أن خيلا وراء الوادى ستغير عليهم لصدقوه ، لأنهم لم يعهدوا عليه كذباً ؟

على أنه قد لبث فيهم من قبل ذلك أربعين عاما ، فلم يحدث بنبوة ولابرسالة ؛ ذلك أن هذا الأمر إنما يرجع إلى مشيئة الله فحسب .

(قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به فقدْ لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون ؟) يونس / ١٦ [١] .

ويطلب إليهم القرآن أن يتفكروا فى أمر صاحبهم هذا الذى نشأ بينهم ، وترعرع على مرأى ومسمع منهم ، بل كانوا يعرفونه كما يعرفون ابناءهم بالصدق ، والأمانة ورجاحة العقل ، قال تعالى :

(قل : إنما أعظكم بواحدة : أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا ، ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذيرٌ لكم بين يدى عذاب شديد) سبأ / ٤٦ .

ولم الشك فى أمره مع أنه قد تجرد من كل مطمع دنيوى؟

(قل : ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله ، وهو على كل شىء شهيد) سبأ / ٤٧ .

ولم التشكك فى أمره وهو أمى لايقرأ ولايكتب ؟ ومن كانت حاله هذه لا يمكنه أن يستمد مايقول من كتاب ، قال تعالى :

= اثنين اثنين ، وواحدا واحدا ، « ثم تفكروا » فى أمر محمد ﷺ وما جاء به .

أما اثنان ، فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه متصادقين لا يميل بهما اتباع هوى ، ولاينبض لهما عرق عصبية ، حتى لايهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه .

(١) والآية رقم ٤٦ من سورة سبأ ، والمعنى على ماورد فى الزمخشرى « ملخصاً » إنما أعظكم بواحدة ، إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم ، وهى أن تقوموا لوجه الله خالصاً ، وكذلك الفرد : يفكر فى نفسه بعدل ونصفة ، من غير أن يكابرها ، ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقر عنده ، من عادات العقلاء ومجارى أحوالهم .

والذى أوجب تفرقتهم مثنى وفرادى : أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ويمنع من الرؤية ، ومع ذلك يقل الإنصاف ، ويكثر الاعتساف

وقد علمتم أن محمداً ﷺ : مابه من جنة ، بل علمتموه : أرجح قريش عقلاً ، وأصلهم رأياً ، وأصدقهم قولاً ، وأنزههم نفساً ، فكان مظنة لأن تظنوا به الخير ، وإذا فعلتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بأن يأتيكم بآية .

(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك . إذاً لارتاب المبطلون) [١]
هذه الظروف ، وهذه الملابسات . فضلا عن القرآن . ترشد إلى أن محمداً ﷺ كان صادقاً فى دعواه .

٨

معارضة العرب :

بيد أن العرب تغالوا فى المعارضة . حتى لقد وصلوا أحياناًإلى حد السخف . ولكن القرآن كان لهم بالمرصاد ، وكان دائماً يفحمهم فى قوة .

لقد قالوا : (مالهذا الرسول يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق ؟) [٢] فرد الله عليهم بما يقطع حجتهم .

(وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق) الفرقان/٢٠ وقال : (ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية) الرعد/٣٨

ولم يجد اليهود ولا النصارى مفرًّا من الاعتراف بأن الرسل السابقين كانوا حقًّا كذلك .

وقال العرب : (لولا نزل عليه القرآن جملةً واحدة ؟) الفرقان/٣٢
فإذا بالقرآن يعلل ذلك تعليلاً فى غاية القوة والوضوح :
(كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً) [٣] الفرقان/ ٣٢

---

(١) سورة العنكبوت آية : ٤٨ . (٢) سورة الفرقان آية : ٧ ،

(٣) وهذا أيضاً من اعتراضاتهم ، واقتراحاتهم الدالة على شرودهم عن الحق ، وتجافيهم عن أتباعه ، قالوا : هلا نزل عليه دفعة واحدة ، فى وقت واحد ، كما أنزلت الكتب الثلاثة ! وماله أنزل على التفاريق ؟ ، والقائلون قريش ، وقيل اليهود .

وهذا فضول من القول ، ومماراة بما لاطائل تحته : لأن أمر الإعجاز والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة واحدة أومفرقاً ، وقوله تعالى : (كذلك لنثبت به فؤادك) جواب لهم أى كذلك أنزل مفرقاً .

والحكمة فيه : أن نقوى بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه لأن المتلقن : إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئاً بعد شيء وجزءا عقيب جزء ، ولو ألقى عليه جملة واحدة لبعل به وتعيا بحفظه . والرسول – ﷺ : فارقت حاله حال موسى وداود وعيسى =

وقالوا : (لولا نُزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم !) الزخرف/ ٣١

فرد عليهم القرآن فى أسلوب لاذع :

(أهم يقسمون رحمة ربك) الزخرف/٣٢

ورأوا أن يكون الرسول ملكاً ، فإذا بالقرآن يجيبهم فى منطق صارم :

(ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم مايلبسون) الأنعام/٩ .

ويذكر ذلك فى موضع آخر مصوراً تعنتهم فى إنكار النبوة فيقول :

(ومامنع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً ؟) الإسراء/٩٤

ويرد عليهم القرآن معللاً الأمر بتعليل آخر غير السابق فيقول :

(قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً) الإسراء/٩٥

وهذا التعليل فى غاية العمق ؛ فإنه ينطوى على سبب من أهم أسباب إرسال الرسل فالملائكة ليسوا – بطبيعتهم – فى حاجة إلى من يهديهم من الناحية الأخلاقية ، إنهم ملائكة .

ويتعمد القرآن أن يصفهم بأنهم « يمشون مطمئنين » فيثبت بذلك توضيح طبيعتهم الملائكية فى أذهاننا ، ومع ذلك يقول :

(لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً)

لم ؟ إنهم ملائكة ، وهم يمشون مطمئنين فما حاجتهم إلى الرسالة ؟

الواقع أن مهمة الرسول الأولى ليست الأخلاق ، وإنما هى معرفة الله والملأ الأعلى وما وراء الطبيعة ، وذلك لايتأتى فى صحة لايشوبها خطأ بمنطق عقلى أو قياس نظرى ؛ وإنما يتأتى عن الله بسفرائه إلى عباده وهم الرسل .

والملائكة كالبشر : عاجزون عن معرفة الله إلا به ، ولقد قالوا كما حكى القرآن

= عليهم السلام حيث كان أمياً : لايقرأ ولايكتب ، وهم كانوا قارئين كاتبين ، فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ ، فأنزل عليه منجماً فى عشرين سنة ، وقيل فى ثلاث وعشرين ، وأيضاً فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين . . . » عن الزمخشرى ج٢ ص١٠٩ » (م٦ – القرآن) (م١) .

عنهم فى سورة البقرة .

(سبحانك لا علم لنا إلا ماعلمتنا)[١] ، أما الأخلاق فإنها فى المرتبة الثانية بعد معرفة الله .

وأرجفوا : بأن محمداً ﷺ يستمد القرآن من شخص معين فرد عليهم القرآن فى قوة :

(لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين) النحل/١٠٣

ولما استيئس العرب من الجدل المنطقى تقمصوا عقلية الصبيان :

(وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه)[٢] .

فيجيبهم القرآن فى سهولة قوية لاذعة جادة ساخرة .

(قل : سبحان ربى ! هل كنت إلا بشراً رسولاً ؟) الإسراء/٩٣

ويثور العرب ، حينما يرون منطقهم ينهار فينادون :

(يأيها الذى نزل عليه الذكر ، إنك لمجنون ، لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ؟) الحجر/ ٦ ، ٧

ويرد عليهم القرآن مبينا لهم ماقد خفى عنهم .

(ماننزلُ الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين) الحجر/ ٨

ويصور القرآن فى النهاية موقفهم الحقيقى الذى لايخرج عن أن يكون عناداً لاشائبة فيه لطلب الحق ، ولاللرغبة فى الهدى فيقول :

(ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون)[٣]

(ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا

---

(١) آية : ٣٢ .

(٢) سورة الإسراء الآيات : ٩٠ – ٩٣ .

(٣) سورة الحجرآيا : ١٤ . ١٥ .

سحر مبين) الأنعام / ٧

فلما أخذتهم الحجة من جميع أقطارهم ورأوا أنهم أضعف من أن يغلبوا بالمنطق أعرضوا وقالوا :

(قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقرٌ ومن بيننا وبينك حجابٌ ، فاعمل إننا عاملون)[١]

فيذكرهم القرآن موقف الأمم قبلهم ، وينذرهم بعذاب : كما هى سنته مع هذا النوع من المعاندين .

(فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عادٍ وثمود) فصلت / ١٣

حقا لقد كانت خصومة العرب للرسول ﷺ عنيفة قوية ، ولقد صورها القرآن فى قوتها وفى عنفها ، ولم يأب أن يذكر مافاهت به العرب مما يسىء الرسول ﷺ ، فذكر وصفهم له بالجنون ، وبالشعر ، وأنه ساحر أو مسحور ، وبأنه ليس من عظماء القريتين[٢] وبأنه يأخذ القرآن عن غيره ، أو بأن القرآن ليس إلا سحراً ، أو أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلاً .

ذكر القرآن كل ذلك ، وصور الخصومة فى عنفوانها عارضاً أدلة الجاحدين ذلك أن القرآن هداية الله ، وهدايته سبحانه وتعالى : هى الحق الذى يقذف على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق .

٩

وجود الله :

لقد كان من الطبيعى – بعد أن ثبتت النبوة – أن يتلقى العرب كل ماجاء فى القرآن بالقبول ، ولكن القرآن لم يكن يلقى القول على علاته ، وإنما يأتى بالقضية مبرهناً عليها بالدليل تلو الدليل : فيرضى العقل ، ويطمئن النفس ، ويقود الضمير إلى الإذعان .

---

(١) سورة فصلت آية : ٥ .

(٢) مكة والطائف .

وبرغم أن وجود الله أوضح من أن يبرهن عليه فقد وجد فى كل الأزمنة من جحدوا الصانع المدبر العالم القادر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً[١]

على هؤلاء – فى كل زمان ومكان – يرد القرآن فى استفاضة وفى تنوع ، وما من شك فى أن مسألة إثبات وجود الله لم تكن فى يوم من الأيام هدفاً من أهداف القرآن ، ولم تكن فى يوم من الأيام هدفاً من أهداف الرسول ﷺ ، أو أحد أصحابه ، وذلك أن الإيمان بوجود الله مسألة نظرية وبديهية ، ونحن هنا نسير على أنه يمكن أن يؤخذ من القرآن أدلة على وجود الله وإن لم يكن ذلك هدفاً من الأهداف القرآنية ، وإذا نسقنا الأدلة أو نظمناها فإنما يرجع ذلك إلى استنتاج من نصوص هدفها الصحيح بيان عظمة الله وتدبيره وقدرته وهيمنته على كل ما فى العالم من صغيرة وكبيرة وبيان عناية الله ورعايته وإحكامه المحكم وإبداعه المتقن لكل مايسرى فى العالم من قوانين ونواميس . إن القرآن يمكن أن يؤخذ منه الرد على من انحرفت فطرتهم فيقال : إنه يرد عليهم أولاً بضروريات فكرية ، فيثبت الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق :

(أفى الله شك فاطر السموات والأرض)[٢]

(ومن آياته : أن خلقكم من تراب)[٣] ، (ومن آياته خلق السموات والأرض)[٤] .

ويؤكد هذا بمبادئ مقررة يعترف بها كل إنسان عندما يفكر فيها تفكيراً بسيطاً أنه من البين أن الشىء لايمكن أن يوجد بدون علة ، ولايمكن من جانب آخر أن تكون علته صياغة نفسه :

(أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ؟)[٥]

---

(١) المنقذ من الضلال للغزالى : طبعة دار الكتب الحديثة .
(٢) سورة إبراهيم آية/١٠ .
(٣) سورة الروم آية ٢٠ .
(٤) سورة الروم آية ٢٢ .
(٥) سورة الطور آية : ٣٥ .

ولايقتصر القرآن على ذلك بل يورد فى غير ما موضع وفى غير ماسورة ، ذلك الدليل الذى يقول عنه «كانت» إنه يذكر مع الاحترام : أعنى الدليل الذى يطلق عليه أحياناً ، دليل العناية ، وأحياناً أخرى : دليل النظام ، أو التدبير ، أو الغائية ، وهذا الدليل ، هو الذى يستند إلى مانراه فى العالم من تناسق ، وتضامن وانسجام ، ومن تدبير محكم ، وعناية تامة بكل صغيرة وكبيرة ، وترابط لا انفصام له بين أجزاء العالم وأجزاء وحداته أيضاً .

وقد استخدم القدماء هذا الدليل ، ولايزال المحدثون يستخدمونه ، ويعتبره بعضهم أوضح الأدلة على وجود الله ، بل أقواها ، وهو فى الوقت نفسه أسهلها بالنسبة للإدراك الإنسانى .

قال الله تعالى :

(وألقى فى الأرض رواسى أن تميدبكم)[١] (الله الذى سخر لكم البحر)[٢]

(هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً)[٣]

(وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته)[٤]

(والله جعل لكم الأرض بساطاً)[٥]

(ألم نجعل الأرض مهاداً ، والجبال أوتاداً ، وخلقناكم أزواجاً ، وجعلنا نومكم سباتاً ، وجعلنا الليل لباساً ، وجعلنا النهار معاشاً ، وبنينا فوقكم سبعاً شداداً وجعلنا سراجاً وهاجاً ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً ، لنخرج به حبًّا ونباتاً ، وجنات ألفافاً)[٦]

وإذا تصفحت القرآن تبينت مصداق قوله تعالى : (وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها)[٧]

وكثير من آى القرآن يجمع بين دليل الخلق ودليل العناية :

(إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى

---

(١) سورة النحل آية : ١٥ .
(٢) سورة الجاثية آية : ١٢ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٩ .
(٤) سورة الأعراف آية : ٥٧ .
(٥) سورة نوح آية : ١٩ .
(٦) سورة النبأ الآيات : ٦ - ١٦ .
(٧) سورة إبراهيم آية ٣٤ .

فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)[١]

وفى سورة الروم آيات متتالية تجمع بين الدليلين – الخلق والعناية – وهى قوله تعالى :

(يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون) ،

(ومن آياته – أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون)

ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ،

ومن آياته – خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين .

ومن آياته منامكمُ بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون .

ومن آياته : يريكم البرق خوفاً وطمعاً ، وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ،

ومن آياته – أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون)[٢] .

هذه الأدلة تكاد تتضمن كل ماعداها من أدلة قديمة كانت أو حديثة برغم اختلاف أساليب التعبير ، بحسب اختلاف البيئة أو الزمن :

إنها تتضمنها فى صورتها السهلة : الأثر يدل على المؤثر

وتتضمنها فى صورتها الفلسفية القديمة : الممكن والواجب

وتتضمنها فى صورتها الفلسفية الحديثة سواء رجعنا فيها إلى شعور الوجدان أو فكرة الكمال أو غير ذلك .

---

(١) سورة البقرة آية : ١٦٤ .

(٢) سورة الروم الآيات : ١٩ – ٢٥ .

الإنسان فى رحلة البحث عن الله عز وجل :

من روائع مناجاة ابن عطاء الله السكندرى مايلى :

« إلهى . كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك . أيكون لغيرك من الظهور ماليس لك حتى يكون هو المظهر لك ؟ »

« متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ؟ »

« ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك »

إن مسألة وجود الله[1] لم تكن فى يوم من الأيام محل بحث عند ذوى الشعور الدينى السليم ..

ولم ينشأ الجدل فى هذه المسألة إلا فى العصر اليونانى ، فهو العصر الذى جعل منها مشكلة قابلة للأخذ والرد ، والقبول والرفض .

والواقع أن ظروف العصر اليونانى القديم هى التى جعلت منه مثلاً سيئاً فى كل ما يتعلق بالدين والخلق .

لقد كان عصراً خلا من الدين الحق ، ولم ينعم بالمعرفة الصحيحة عن طريق الوحى . فحاولت طائفة منه أن تصل إلى الوحى عن طريق الكهانة . ومن ذلك كاهنات معبد دلفى المشهورات . .

وحاولت طائفة أخرى أن تصل إلى الوحى عن طريق النسك والعبادة والذكر . ومن هؤلاء : فيثاغورث وأتباعه وأفلاطون والأفلاطونيون . القدماء منهم والمحدثون . لقد حاولوا أن يقتنصوا الوحى اقتناصاً ، وأن يكشفوا عن الحجب وأن يزيلوا الأقنعة ، وأن يصلوا إلى الله ، فيتصلوا بالجمال والجلال والخير المطلق .

بيد أن الطريق الذى سلكوه إنما هو طريق خاطئ لأنه لم يؤسس على وحى يرسم طريق الهداية الصحيح ، وإنما أسس على نهج عقلى بشرى ، أو على تقاليد متوارثة .

---

(١) حينما يكتب الكاتبون عن مثل هذا الموضوع يبدءون عادة بإثبات وجود الله سبحانه وتعالى . ويتخيلون أن هذه المسألة أهم مافى الموضوع . . . وهذا النهج فيما نرى – لايقره دين ولاتقره فطرة . وقد حاولنا أن نستفيض فى بيان رأينا فى هذا النهج مبينين أن الدين لايضع مسألة وجود الله موضع بحث ، وأن الفطرة السليمة لاتقر ذلك .

ومن أجل ذلك لم ينتج الثمرات المرجوة ، ثم هو طريق صعب المرتقى ؛ لأنه يعارض النزعات الحيوانية فى الإنسان ، ويحاول السمو بها وإعلاءها ، ويريد أن يرقى بالإنسان إلى مايقرب من المستوى الروحى الملائكى .

ولكن بنى البشر فى الأغلب منهم يخلدون إلى الأرض ، ويتبعون أهواءهم ولذلك كانت قلة قليلة تلك الفئة التى حاولت اتباع هذا التيار فى صرامة وإخلاص .

أما الأغلبية العظمى من اليونان فقد اتبعوا التيار الذى يعتمد على العقل البشرى اعتماداً كلياً ، وكان زعيمهم الأكبر فى ذلك أرسطو : فهو الذى وطد أركان العقل البشرى وأشاد به كأساس للبحث فى عالم ماوراء الطبيعة ، وفى عالم الفضيلة أو الخير .

وما كان العقل فى يوم من الأيام – عند حكماء المصريين أو حكماء الهنود – أهلاً لأن يكون مصدر المعرفة فى عالم الغيب .

وأخذ العقل – عقل أرسطو ومن لفّ لفه – يجادل ويمارى فى الحقائق : صغرت أو كبرت ، ودقت أو جلت ، واضحة كانت كوضوح النهار ، أو خفية كأنها غلفت بقطع من الليل المظلم ؛ وتجرأت أقلامهم على تناول عالم الغيب وعالم الخير بالإنكار أو الشك ، أو ترجيح الوجود أو ترجيح العدم .

وحاول كل زعيم أن يصور الأمر فى هذين الميدانين – ميدان ماوراء الطبيعة ، وميدان الأخلاق – بحسب مزاجه وأهوائه ، وبحسب ماتمليه عليه ثقافته وبيئته ، وبحسب ما تمليه عليه طبيعته الجسمانية وجبلته الخلقية .

وانتهى الأمر بأنْ حاول المثبتون الرد ، فحاول المنكرون تعليل الرفض . . وزالت قدسية الموضوع ، وأصبحنا أمام جو من اللجاج والمماراة لايليق بجلال الله وعظمته (وماقدروا الله حق قدره)[1] . .

ولو قيض الله للبيئة اليونانية جواً من الخير والهدى ، ولو أنعم الله عليهم بنشأة رسول فيهم – لما كان هذا الانحراف الذى انتشر فيهم – منذ أرسطو – انتشار الوباء

(١) سورة الحج آية : ٧٤ .

الخبيث ، والذى تغلغل حتى وصل به الأمر – وهو انحراف منحرف – إلى أن أصبح – وكأنه الوضع الطبيعى – فساداً فى كل بيئة ، وغزا كل عقل ، وكلما تقدم به الزمن ازداد رسوخاً وثباتاً ، وازداد انتشاراً ، حتى لقد غزا الأديان التى تأبى أن تقره أو تعترف به .

لقد تغلغل فى المسيحية ، فوضع رجال المسيحية مسألة وجود الله وقضية الفضيلة موضع البحث ، ونزلوا إلى مجال المجادلة والمماراة !

وأخذ هذا الوضع يتخطى القرون حتى جاء الإسلام ، فوضع الأمر فى نصابه ، ووجه الأذهان إلى أن الأمر الأساسى إنما هو مسألة الوحدانية : « أشهد أن لا إله إلا الله » وجه الإسلام الأذهان فى عنف وفى قوة إلى التوحيد ، لا إلى إثبات الوجود .

لقد وجه الإسلام الأذهان إلى أن الله لايحتاج فى إثباته وفى وجوده إلى دليل وهو – على العكس – الدليل على غيره ، فغيره ثابت به ، والعالم ثابت بثباته .. والسموات والأرض والعرش والكرسى – كل ذلك موجود بوجوده ، ثابت بثباته . . والوجود بأكمله محتاج فى كل لحظة إليه فضلاً عن احتياجه إليه فى نشأته الأولى ووجوده الأصلى . .(إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا)[1]

إنه يمسكها فى كل آونة وفى كل لحظة ، فإذا ماتخلى عنها طرفة عين تلاشتا فكانتا هباء ، وكانتا عدماً . . وكل ذرة فى العالم ، وكل خلية فى كائناته – إنما ثباتها بالله وقيامها به . .

ومثل الإنسان كمثل أى كائن آخر من حيث وجوده وقيامه بالله ، وقد كرمه الله وأعطاه الكثير من المنح والمزايا ووهب له هذا التميز والفهم ، وسخر له الكثير من العوالم الأخرى وجعله خليفة فى الأرض .

ومن أجل ذلك كانت مسئوليته فيما يتعلق بتصحيح الصلة بينه وبين الله عظيمة خطيرة .

أما تصحيح هذه الصلة فإن ذروتها العليا ومثلها الأسمى إنما هو ما أمر به صلوات الله وسلامه عليه فى قوله تعالى :

---

(١) سورة فاطر آية : ٤١ .

(قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)[١]

وفرق هائل بين من يتخذ هذه الآية القرآنية شعاراً ، ومن يحاول – متجاوزاً قدره – الاستدلال على وجود الله بمخلوق من مخلوقاته . .

إن الفرق بينهما هو الفرق بين طريق الهدى والصواب ، وطريق الجدل والشك . وجاء الإسلام – كما قلنا – ليضع الأمور فى نصابها ، وليصحح الأوضاع التى انحرفت

ومن هذه الأوضاع المنحرفة الشرك بالله . . والإنسان يشرك بسبب الضعف على وجه العموم ، وقد يكون هذا الضعف فقراً ، وقد يكون جهلاً ، وقد يكون طمعاً وجشعاً ، وقد يكون خوفاً وفزعاً ، وقد يكون غير ذلك . . ومهما يكن من أمر الشرك فإنه – أينماوجد – ليس إلا مظهراً من مظاهر الضعف . .

وحاول الإسلام أول ماحاول أن يطهر النفوس من هذا الضعف ، وأن يعيدها بالتوحيد – إلى مجالات العزة والكرامة . . (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)[٢] ، فكانت دعوته للتوحيد .

أما ما فى القرآن مما تخيله بعض الناس استدلالاً على وجود الله ، واعتقد أنّ القرآن قصد بذكره الاستدلال على وجود الله ، فليس إلا بياناً لمظاهر قدرة الله وعنايته بالعالم ومن ذلك مثلا :

(وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحدٍ ونفضل بعضها على بعض فى الأكل)[٣]

وإن الله سبحانه وتعالى جعل :

(الأرض مهادا ، والجبال أوتادا ، وخلقناكم أزواجا ، وجعلنا نومكم سباتاً ، وجعلنا الليل لباساً ، وجعلنا النهار معاشاً ، وبنينا فوقكم سبعاً شداداً ، وجعلنا سراجا وهاجا ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً ، لنخرج به حبا ونباتا ، وجنات ألفافا)[٤]

(١) سورة الأنعام آيتا : ١٦٢ ، ١٦٣ .
(٢) سورة المنافقون آية : ٨ .
(٣) سورة الرعد آية : ٤ .
(٤) سورة النبأ الآيات : ٦ – ١٦ .

و(تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ، الذى خلق سبع سموات طباقاً ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير)[١]

وما مثل هذا فى تصوير قدرة الله إلا كمثل :

(ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً فيذرها قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا أمتا ، يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلاهمسا ، يومئذ لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا ، يعلم مابين أيديهم ومأخلفهم ولايحيطون به علما ، وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلماً)[٢]

إن ذلك وكثيراً غيره إنما ذكر ليبين عظمة الله وجلاله وقدرته ، ويبين رحمته بعباده وعنايته بهم . .

ومامن شك فى أنه يمكن أن يؤخذ من ذلك أدلة كثيرة على وجود الله . .

وما من شك فى أن الأدلة التى تؤخذ من ذلك يمكن أن تصاغ فى أسلوب منطقى فى قياس يشتمل على المقدمات والنتائج ، ويكون متفقاً مع قواعد المنطق الأرسطى ومبادئه ، لكان ذلك لن يكون أبداً تصويراً لهدف من أهداف القرآن ، فالقرآن لايضع أبداً وجود الله موضع شك حتى يحتاج إلى الاستدلال عليه .

ومن القصص التى تروى على أنحاء شتى ، وبأساليب مختلفة تتفق فى الجوهر وتختلف فى الرسم – مايحكى من أن بعض مشاهير العلماء ألف كتاباً ضخماً فى إثبات وجود الله ، فأقام له أصدقاؤه حفلة تكريم من أجل عمله الضخم هذا ، ومر بهم بعض الصالحين ، فأخذوا يحدثونه عن عبقرية المؤلف ، فسأل :

ومتى غاب الله حتى يكون فى حاجة إلى إثبات.؟

فوجم الجميع ، ولم يستطع المؤلف الإجابة ، وتركهم الرجل الصالح وهو يردد :

---

(١) سورة الملك الآيات : ١ – ٤ .

(٢) سورة طه الآيات : ١٠٥ – ١١١ .

(قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون)[١]

وقال رجل للثورى – الصوفى المعروف – : ما الدليل على وجود الله ؟

قال : الله . .

قال الرجل : فما العقل ؟ . .

قال : العقل عاجز ، والعاجز لايدل إلا على عاجز مثله . .

كل ذلك يؤيد ماقاله الشاعر :

من رام بالعقل مسترشداً سرحه فى حيرة يلهو

وشاب بالتلبيس أسراره يقول من حيرته هل هو ؟

والنتيجة التى نريد أن نصل إليها هى :

أن روح القرآن إذن هى قيادة النفوس إلى التوحيد . .

(وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)[٢]

(وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين ، قل إنما يوحى إلىّ إنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون)[٣]

وتأتى مشكلة الملاحدة والوجوديين المنكرين لوجود الله ، ماذا نفعل بإزائهم ؟

إن مثل هؤلاء لاوجود لهم فى مجتمع سليم طاهر ، ويكفى اعتزالهم كمرض خبيث ينفر الإنسان منه ، ويكفى عزلهم عن أن يفسدوا الآخرين : تلاميذ كانوا أو طلبة ، أو عمالاً أو زارعين ، ولن تمر فترة طويلة عليهم فى هذا الوضع حتى يرتدعوا ويعدلوا عن اتباع أهوائهم وشهواتهم .

وما الوجودية إلا الهوى ، إنها هوى النفس التى لاتحتمل القيام بالواجب الاجتماعى والدينى . .

والإلحاد ضعف ؛ لأنه محاولة للفرار من التكاليف .

ومع كل ماتقدم فإنه لايتأتى لى أن أترك هذا المجال دون أن أذكر قصة سمعتها

---

(١) سورة الأنعام آية : ٩١ .

(٢) سورة الأنبياء آية : ٢٥ .

(٣) سورة الأنبياء آيتا : ١٠٧ ، ١٠٨ .

حديثاً هزتنى من الأعماق أيضاً ، ووقعت من نفسى موقعاً من الروعة والجلال لا يمكننى تصوير مداه .

لقد ذكر لى هذه القصة فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ مدثر الحجاز وكيل جامعة أم درمان ورئيس الطريقة التيجانية بالسودان :

فى إحدى القرى النائية المنعزلة من قرى السودان – كان يعيش رجل عابد صالح ، وكان يقضى وقته بين المسجد والبيت ، لم يكن يفارق القرية يوماً ما ، والقرية فى انعزالها كأنها – بالنسبة له – العالم كله .

وفى يوم من الأيام ، ولظروف معينة غادر هذا الرجل الصالح القرية بصحبة صديق له ، وجدًّا فى السير حتى وصلا إلى الطريق الذى يؤدى إلى المدينة . .

وما إن وصلا إلى الطريق حتى رأيا – بطريق المصادفة – رجلاً من رجال الجيش الإنجليزى بملابسه العسكرية مترف المظهر ، متحلياً بكل ما يمكن أن يتزين به رجل الجيش المترف الأنيق . . ولم يكن الشيخ الصالح قد أتاحت له الظروف رؤية مثل هذا المنظر فى قريته أو فى عالمه المنعزل النائى الذى اختصره الشيخ – مع صغره – من قرية إلى بيت إلى مسجد .

وتأمل الشيخ رجل الجيش الإنجليزى فى دهشة ، ثم سأل صديقه مشيراً إلى هذا الشىء الغريب :

– ما هذا ؟

– هذا خواجة . وما كانت كلمة خواجة قد دخلت فى قاموس الشيخ .

فقال لصديقه : وماخواجة ؟

– هذا كافر . .

وعاد الشيخ يسأل فى دهشة أشد ، وفى استغراب أقوى :

– أهو كافر بالله ؟

فقال صديقه : نعم . .

وما إن نطق صديقه بذلك حتى تملك الشيخ شعور بالاشمئزاز منعه من أن يتلفظ أو ينطق ، وغمره إحساس بالغثيان أخذ يقوى ويزداد بسرعة سريعة وإذا

بالشيخ يتقايأ اشمئزازاً وغثياناً وتقززاً من هذا الكافر . . !

هذه هى القصة .

أترى تصويراً أدق للشعور بالنسبة للملحد من هذا الاشمئزاز ؟

وأى قلم يبلغ فى التعبير ما بلغ هذا الشيخ ؟ وأى أسلوب ؟

إن جميع الأعراف فى جميع أرجاء الكون تتفق فى الاشمئزاز ممن ينكر الجميل ، وهذا الاشمئزاز يتفاوت بنسبة قيمة الجميل الذى يسدى ، وبنسبة درجة النكران التى تقابله وبنسبة صفاء النفس التى تعلم أوترى هذا النكر .

والإنسان – إيجاداً وخلقاً وتصويراً – من صنع الله . . وهو – بصراً وسمعاً وذوقاً وإحساسا وشعوراً – من صنع الله . . وهو – عقلاً وفكراً – من صنع الله . .

وكل نعمة ظاهرة وباطنة – ونعم الله لاتعد – إنما هى من صنع الله . .

(وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها)[1] . . (ومابكم من نعمة فمن الله)[2]

من نعم يتقلب فيها ليلاً ونهاراً ، صباحاً ومساء – إن كل ذلك من الله

فإذا ماكفر إنسان بالله فإنه يكون أخس من أن يعاقبه الإنسان بالصفع ، وأحقر من أن يبصق الإنسان فى وجهه ، ولايستأهل إلا الاشمئزاز إلى درجة التقايؤ . .

أما الجزاء فى الدين الإسلامى فإنه معروف :

يستتاب ، فإن لم يتب قتل مرتداً .

ومما لاشك فيه أن من الوسائل الكريمة التى تحول دون انتشار هذه القيادات الفاسدة الملحدة فى المجتمع مايرجع إلى علماء الدين : فإنهم وقد هيأ الله لهم أن يتولوا قيادة المجتمع دينيًّا لاشك يكون تأثيرهم جارفاً إذا كانوا مثلاً عالية للفضيلة : للفضيلة فى أسمى معانيها وأشملها . . أى إذا كانوا – حقًّا – بالمنزلة التى ترضى الله ورسوله : علماً وخلقاً وحبًّا للخير ، وإخلاصاً فى كل مايأتون ومايدعون . وقد بين الله مقاييس الخير وموازين الفضيلة ؛ وبين طريق الخير وسبل الضلال ، وعلماء الدين أعرف بذلك من غيرهم ، فمسئوليتهم أشد وواجباتهم أصرم ، وتأثيرهم فى المجتمع – باديةً وحاضرةً – ، لاشك كبير . . والله يهدينا جميعاً سواء السبيل .

---

(١) سورة النحل آية : ١٨ . (٢) سورة النحل آية : ٥٣ .

١٠

الوحدانية :

وإذا كان القرآن لايجعل من أهدافه إثبات وجود الله فإنه يجعل من أهدافه الكبرى إثبات التوحيد ، والإسلام هو دين التوحيد ، والله سبحانه وتعالى واحد لاشريك له ويستدل القرآن بالمشاهدة الصادقة : (لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)[١]

هذه المشاهدة العادية تلبس صورة منطقية رائعة ، فلوكان هناك إله غير الله إذن (لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض)[٢]

على أن القرآن لايكتفى بالمشاهدة وبالمنطق ، وإنما يرجع بالإنسان إلى وجدانه ويثبت الوحدة عن طريق النظام والعناية والتدبير فيقول فى آيات رائعة :

(قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، آلله خير أما يشركون ، أمّن خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ماكان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ أإله مع الله ؟ بل هم قومٌ يعدلون .

أمّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزاً ؟ أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون ،

أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله ؟ قليلاً ما تذكرون .

أمّن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ؟ أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون ،

أمّن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)[٣] .

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٢٢ .

(٢) سورة المؤمنون آية : ٩١ .

(٣) سورة النمل الآيات : ٥٩ – ٦٤ .

١١

العلم :

والله سبحانه وتعالى عالم ، إنه عالم الغيب والشهادة :

(الله يعلم ماتحمل كل أنثى ، وما تغيض الأرحام وماتزداد وكل شيء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ، سواء منكم من أسرَّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) [١]

والله تعالى لايعلم الماضى والحاضر فحسب ، ولكنه يعلم المستقبل أيضاً :

(ما أصاب من مصيبة فى الأرض ، ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير) [٢]

وهو يسخر ممن جعلوا لله شركاء ، ويسألهم فى سخرية وإنكار :

(وجعلوا لله شركاء ، قل : سموهم ، أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض أم بظاهر من القول) [٣]

وفى القرآن آية يرى بعضهم أنها تشير إلى العقل الباطن أو اللاشعور .

(وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) [٤]

والقرآن يرشد إلى أن علمه ليس مقصورا على ذاته كمايرى أرسطو ، وليس مقصوراً على الذات والكليات كما يرى بعض الفلاسفة ، ولكنه علم شامل للذات والكليات والجزئيات جميعها على الوجه التام :

(يعلم مايلج فى الأرض ، ومايخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو الرحيم الغفور ، وقال الذين كفروا : لا تأتينا الساعة قل : بلى وربى لتأتينكم ، عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك

---

(١) سورة الرعد الآيات : ٨ - ١٠ .

(٢) سورة الحديد آية : ٢٢ .

(٣) سورة الرعد آية : ٣٣ .

(٤) سورة طه آية : ٧ .

ولا أكبر إلا فى كتابٍ مبين)[١]

(وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وماتسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين .

وهو الذى يتوفاكم بالليل ، ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون)[٢]

أما دليل القرآن على علم الله فهو فى غاية الوضوح والقوة .

(ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟)[٣]

١٢

مظاهر صفاته :

الله عالم ، وهو مريد ، قادر ، وحكيم ، ومن مظاهر صفاته هذه المتضامنة هذا الكون وماحواه من بديع صنعته ، والقرآن يتحدث فى استفاضة عن مظاهر هذه الصفات فى كثير من السور ، بل لاتكاد تخلو سورة من هذه المظاهر كلها أو بعضها .

وإليك نموذجاً يحدثك بذلك :

(الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر ، يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون .

وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون .

وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان ، وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون)[٤]

---

(١) سورة سبأ آية : ٣ .

(٢) سورة الأنعام آية : ٥٩ ، ٦٠ .

(٣) سورة الملك آية : ١٤ .

(٤) الرعد الآيات : ٢-٤ .

١٣

البعث :

الله سبحانه وتعالى خالق ، وهو واحد مريد ، عالم قادر . . إلخ ، وهو أيضاً باعث ، ومسألة البعث مسألة أنكرها قوم يطلق عليهم الإمام الغزالى « الطبيعيون » وهم قوم أنكروا البعث مع اعترافهم بالصانع .

لقد اعترفوا بالصانع لما رأوه فى عجائب الطبيعة من تناسق محكم لا يمكن أن يكون وليد المصادفة ، ولكنهم رأوا أن النفس تابعة للبدن ، ولذلك تفنى بفنائه . وكانت نتيجة ذلك أن جحدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار والحساب .

على هؤلاء وأضرابهم على اختلاف بيئاتهم وأساليبهم يرد القرآن فى غير ماوضع . وطبيعيو العرب لم يكن عندهم فى هذه المسألة منطق جدلى فلسفى ، وليس لهم من دليل سوى الإنكار والاستبعاد :

(وقالوا ، أإذا كنا عظاماً ورفاتاً أإنا لمبعوثون خلقاً جديدا)[١]

(قال من يحى العظام وهى رميم ؟)[٢]

والقرآن يرد عليهم بتذكيرهم بمظاهر قدرة الله السائدة فى الكون ، وبأنه ليس من العدالة الإلهية أن يترك الإنسان سدى فلا يجازى على ماقدم .

(أيحسب الإنسان أن يترك سدى ؟ ألم يك نطفة من منى يمنى ؟ ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟)[٣]

وفى القرآن كثير من الآيات ترد عليهم مستندة إلى مظاهر قدرة الله وعدالته .

وفيه آيات متتالية فى آخر سورة يس تحدثت عن رأى منكرى البعث ، ثم ردت عليهم ردوداً متنوعة مختلفة واضحة قوية ، ونحن نذكر هذه الآيات ، ونذكر تفسير الكندى لها نقلاً عن كتاب الكندى للأستاذ أبى ريدة

---

(١) سورة الإسراء آية : ٤٩ .

(٢) سورة يس آية : ٧٨ .

(٣) سورة القيامة الآيات : ٣٦ - ٤٠ .

(قال : من يحيي العظام وهى رميم ؟ قل : يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ، أوَليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى ، وهو الخلاق العليم ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون)[1]

ويقول الأستاذ أبو ريدة عن تفسير الكندى لهذه الآيات :

إن فيه يبرز فيلسوفنا الأصول النظرية التى تتضمنها هذه الآيات من جهة ، ويستخرج النتائج التى تلزم عنها من جهة أخرى ، وهى :

١ – وجود الشيء من جديد ، بعد موته وتحلله السابقين – ممكن بدليل مشاهدة وجوده بالفعل مرة ولاسيما أن جمع المتفرق أسهل من إيجاده وإبداعه عن عدم ، وإن كان لايوجد بالنسبة لله شيء هو أسهل وشيء أصعب ، هذا الدليل موجود فى الآيات فى كلمات قليلة :

(قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم) .

٢ – ظهور الشيء من نقيضه كظهور النار من الشجر الأخضر ممكن ، وواقع تحت الحس .

وإذن يمكن أن تدب الحياة فى الجسد المتحلل الهامد مرة أخرى .

وذلك أيضاً على أساس المبدأ الأكبر وهو : أن الشيء يوجد من العدم المطلق بفعل المبدع الحق – هذا الدليل موجود فى آية :

(الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ، فإذا أنتم منه توقدون) .

وقد انتفع به الأشعرى فى إمكان البعث .

٣ – خلق الإنسان أو إحياؤه بعد الموت أيسر من خلق العالم الأكبر بعد أن لم يكن ، وهذا هو مضمون آية :

(أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم)

---

(١) سورة يس الآيات : ٧٨ – ٨٣ .

٤ – الخلق والفعل مطلقاً مهما عظم المخلوق لايحتاج من جانب الله المبدع لا إلى مادة ولا إلى زمان – خلافاً لفعل البشر الذى لايتم إلا فى زمان ، ويحتاج إلى مادة تكون موضوع الفعل ، وهذا هو معنى آية :

(إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) .

وهذه الآية – فى رأى الكندى – إجابة عما فى قلوب الكفار من النكير بسبب ظنهم أن الفعل الإلهى المتجلى فى خلق العالم الكبير يحتاج إلى زمان يناسب عظمته قياساً منهم لفعل الله على فعل البشر ، لأن فعل البشر لما هو أعظم يحتاج إلى مدة زمانية أطول فجاءت الآية حاسمة فى بيان نوع الفعل الإلهى وأنه إبداع .

فالإرادة الخالقة والقدرة المطلقة لاتحتاج إلى مادة ولا إلى امتداد زمانى .

«فأى بشر – كما يقول الكندى – يقدر بفلسفة البشر أن يجمع فى قول بقدر حروف هذه الآيات ماجمع الله – جل وتعالى – إلى رسوله ﷺ فيها من إيضاح : إن العظام تحيا بعد أن تصير رميماً ، وإن قدرته تخلق مثل السموات والأرض ، وإن الشىء يكون من نقيضه ؟ كلّت عن ذلك الألسن المنطقية المتحايلة ، وقصرت عن مثله نهايات البشر ، وحجبت عنه العقول الجزئية» ا.هـ[1]

على أننا لانترك موضوع البعث دون أن نوجه ذهن القارئ إلى هذا التنظير البديع الذى ذكره القرآن الكريم بين الأرض الموات التى يحييها الله فتنبت من كل زوج بهيج ، والعظام والرفات التى يحييها الله ويصورها فيحسن تصويرها .

(يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحى الموتى ، وأنه على كل شىء قدير ، وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور)[2]

---

(١) رسائل الكندى ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٢) سورة الحج الآيات ٥ – ٧ .

١٤

مشاهد القيامة :

ويسبق البعث ويعقبه أمور تحدث عنها القرآن فى كثير من الآيات ووصفها فى روعة أخاذة : إنها تصف يوم القيامة ، وتتحدث عن الحساب والميزان وتصف حالة المؤمنين والكافرين وتصور النار فى صورتها البشعة الكريهة ، والجنة فى روحها وريحانها وصورها ورياضها الفيحاء ، وسنكتفى من كل ذلك بآيات من آخر سورة الزمر :

(وماقدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون : ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . وأشرقت الأرض بنور ربها ، ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء ، وقضى بينهم بالحق وهم لايظلمون . ووفيت كل نفس ما عملت ، وهو أعلم بما يفعلون .

وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ، حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : بلى . ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين .

قيل : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فبئس مثوى المتكبرين .

وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها : سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين .

وقالوا : الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين . وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق ، وقيل : الحمد لله رب العالمين)[1]

---

(١) سورة الزمر الآيات ٦٧ – ٧٥ .

١٥

القرآن ومعتقدات العرب :

إن ما قدمناه سابقاً لم يكن إلا مناحى موجزة من العقيدة الإسلامية لم تستوعبها ، فنحن لم نتتبع القرآن آية آية ، أو سورة سورة ، لنصل من ذلك إلى إعطاء فكرة تامة عن العقيدة الإسلامية .

على أن إيضاح هذه العقيدة يستلزم حتماً توضيح موقف القرآن مما كان منتشراً فى جزيرة العرب من معتقدات .

لقد قلنا سابقاً : إن جزيرة العرب كانت ملأى بمختلف العقائد ، سواء ما استند منها إلى الخيال والوهم ، أو ما استند منها فى أساسه إلى كتاب سماوى ، والقرآن يتحدث عن هؤلاء وأولئك . ويناقشهم ويجادلهم : ليقودهم فى النهاية إلى الطريق المستقيم .

وإذا كان القرآن قد تحدث عن هذه المعتقدات فلم يكن ذلك ؛ لأنها فى جزيرة العرب فحسب ، وإنما كان ذلك لأنها أنماط من معتقدات منتشرة فى جزيرة العرب وفى خارجها ، وكان هدفه من ذلك طبعاً تخليص فكرة الألوهية عن كل مايشوبها من خطأ ووهم وضلال :

تحدث القرآن عن معبودات لاتتصف بصفة الحياة كالأصنام والكواكب . وفى قصة سبأ ذكر لعبادة الشمس ، وفى قصة إبراهيم ذكر لهذين النوعين وفيهامايبطلها .

أما فيما يتعلق بالكواكب : فإنه من البين : أن الإله لا يطرأ عليه المغيب إذ الإله منزه عن ذلك :

(فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال : هذا ربى ؛ فلما أفل قال : لا أحب الآفلين .

فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى ، فلما أفل قال : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين .

فلما رأى الشمس بازغةً قال : هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال : ياقوم إنى برىء مماتشركون)[١]

بيد أن عبادة الأصنام كانت متغلغلة فى جزيرة العرب إلى درجة هى من القوة بحيث اقتضت القرآن أن يفتنّ فى الرد عليها ، واختلفت أساليب رده بين الجدل الصارم ، والسخرية اللاذعة ، والتهكم المرير :

(واتل عليهم نبأ إبراهيم ، إذ قال لأبيه وقومه : ماتعبدون ؟

قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين .

قال : هل يسمعونكم إذْ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون ؟)[٢]

أما الأسلوب المنطقى الساخر المتهكم : فإنه يتمثل فى الآيات التالية :

(ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ، إذ قال لأبيه وقومه ماهذه التماثيل الذى أنتم لها عاكفون ؟ .

قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين .

قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين .

قالوا : أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟

قال : بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون .

قالوا : من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين

قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم .

قالوا : فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون

قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم ؟

قال : بل فعله كبيرهم هذا فأسألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا : إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ماهؤلاء ينطقون . قال : أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولايضركم ؟ أفٌ لكم ولما تعبدون من

---

(١) سورة الأنعام الآيات : ٧٦ - ٧٨ . (٢) سورة الشعراء الآيات : ٦٩ - ٧٣ .

دون الله أفلا تعقلون ؟)[١]

أما عجل بنى إسرائيل فقد كان له خوار ، ثم إنه : (ألا يرجع إليهم قولاً ، ولا يملك لهم ضرا ولانفعا)[٢]

ومع ذلك اتخذوه إلها ، يقول تعالى :

(واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوارٌ ، ألم يروا أنه لايكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين)[٣]

ولم يقتصر القرآن – فى تصحيح فكرة الألوهية فى العالم – على الرد على عبدة الأصنام أو الكواكب ، إذ كان هناك عبدة فرعون ، وعبدة الجن ، وعبدة الملائكة .

وقد ذكر القرآن كل هؤلاء ، وهم جميعاً ينطبق عليهم ماينطبق على الذى حاج إبراهيم فى ربه فليس فى استطاعتهم أن يغيروا مجرى سير الكواكب الذى رسمه الله لها منذ أن وجد العالم :

(ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ؟ إذ قال إبراهيم : ربى الذى يحيى ويميت ، قال : أنا أحيى وأميت .

قال إبراهيم : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر . والله لايهدى القوم الظالمين)[٤]

وليس فى استطاعتهم ، مجتمعين أن :

(لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لايستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب)[٥]

فإذا كانوا قد عجزوا عن أن يغيروا سنة واحدة من سنن الله الكونية ، وعجزوا عن أن يخلقوا ذبابة ، بل يعجزون عن أن يستنقذوا منها ما استلبته منهم . . إذا كانوا قد عجزوا عن ذلك فليسوا بآلهة ؛ لأن من خصائص الإله المقدرة العامة الشاملة .

---

(١) سورة الأنبياء الآيات : ٥١ : ٦٧ .
(٢) سورة طه آية : ٨٩ .
(٣) سورة الأعراف آية : ١٤٨ .
(٤) سورة البقرة آية : ٢٥٨ .
(٥) سورة الحج آية : ٧٣ .

المسيحية :

على أن الصراع القوى : إنما كان بين الإسلام من جانب ، والمسيحية واليهودية من جانب آخر : فقد كان اليهود يعتزون بالتوراة ، ويعتزون بإبراهيم وموسى ، وينظرون إلى كل من عداهم نظرة احتقار ، يسرونها أحياناً ، ويعلنونها حينما تواتيهم الظروف .

وكان المسيحيون يعتزون بالإنجيل ، ويعتزون بعيسى وموسى وإبراهيم ، وينظرون إلى غيرهم نظرتهم إلى القطيع الضال يتطلب راعياً يقوده إلى الحظيرة .

وقد زاد اعتزازهم بأديانهم حينما اعترف القرآن بموسى وعيسى ، واعترف بما أنزل الله عليهم من توراة وإنجيل .

وحقًّا لقد كان موقف القرآن كريماً بالنسبة إلى المسيحيين : انظر إليه فى سموه إذ يقول :

(إذ قالت الملائكة : يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين .

قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر؟ قال : كذلك الله يخلق مايشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، ورسولاً إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم بماتأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين[1])

وبينما يرمى اليهود مريم بأبشع النقائص لحملها بدون زواج إذا بالقرآن يقول :

(يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين)[2]

ولكن القرآن لايعرف المجاملة فى الحق ، وقديماً قال أرسطو كلمته المشهورة :

---

(١) سورة آل عمران الآيات : ٤٥-٤٩ . (٢) سورة آل عمران آية: ٤٢ .

«أحب أفلاطون وأحب الحق وأوثر الحق على أفلاطون»

وإذا كان القرآن يعترف بأن أقرب الناس مودة إلى المؤمنين هم الذين قالوا : إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لايستكبرون فإنه لايجامل فى بيان الحق ، وتوضيح الجادة ، وتصحيح فكرة الألوهية التى حرفها النصارى بعد عيسى .

لقد أرسل الله عيسى برسالته إلى بنى إسرائيل فحرفها من بعده الذين انتسبوا إليه أفظع تحريف ، وشوهوها أبشع تشويه وأبعدوا فى الضلال .

فزعموا تارة أن المسيح هو الله ، وزعموا أن الله ثالث ثلاثة . بل لقد ألهوا مريم ! وكل هذا ضلال تتنزه عنه الرسالة الإلهية .

وقد رد عليهم القرآن من طريق المنطق تارة ، ومن طريق كتبهم وما جاء فيها تارة أخرى ، وفى كلتا الحالتين كان أسلوبه قويًّا عنيفاً كأنه الصواعق تنزل على افترائهم فتحطمه تحطيماً .

(وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً ! لقد جئتم شيئاً إدًّا ! تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدًّا . أن دعوا للرحمن ولداً وماينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً . إنْ كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً)[1]

ويرد عليهم القرآن وعلى غيرهم فى هذا متخذاً أساس الرد عقيدة من عقائدهم ، إنهم يعتقدون أن ليس لله تعالى زوجة فيقول القرآن :

(بديع السموات والأرض أنى يكون له ولدٌ ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم)[2]

---

(١) سورة مريم الآيات : ٨٨ - ٩٣ .

(٢) يقول صاحب البحر المحيط فى تفسير هذه الآية من سورة الأنعام : ١٠١ : «كيف يكون له ولد وهذه حاله : أى أن الولد إنما يكون من الزوجة وهو لازوجة له فلا ولد له . وفيه إبطال الولد من ثلاثة أوجه» أحدهما : أن مبتدع السموات والأرض - وهى أجسام عظيمة - لايستقيم أن يوصف بالولادة ، لأن الولادة من صفات الأجسام ومخترع الأجسام لايكون جسماً . حتى يكون والداً . والثانى : أن الولادة لاتكون إلا بين زوجين من جنس واحد ، وهو تعالى متعال عن المجانسة ، فلم يصح ان تكون له صاحبة ، فلم تصح الولادة . والثالث : أنه مامن شىء إلا وهو خالقه والعالم به ومن كان بهذه الصفة كان غنياً عن كل شىء والولد إنما يطلبه المحتاج إليه ا . هـ النهر المادّ من البحر. ج ٤ ص ١٩٤ .

ثم إن النصارى ألهوا المسيح وأمه عليهما السلام ، وأخذ القرآن يرد عليهم فى هذا بمختلف الردود :

(وإذ قال الله : ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس : اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ! مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق . إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب . ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به : أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم . فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم)[١] .

(لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم . قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ؟ ولله ملك السموات والأرض ومابينهما يخلق مايشاء والله على كل شىء قدير)[٢] .

(لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ، وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم ، إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم)[٣]

وينبه القرآن المسيحيين إلى أن المسيح « وأمه كانا يأكلان الطعام »[٤] ومن البين أن الذى يأكل الطعام ، فيتحول فى جسمه دماً ولحماً وعظاماً ، وينضح عرقاً ، ويخرج فضلة لو بقيت فى الجسم لضرته من الواضح أن كائناً من هذا النمط لايمكن أن يكون إلا بشراً ، خاضعاً لكل قوانين البشرية التى لاتؤدى إلى نقص فى مرتبته كرسول .

لقد كان لميلاد المسيح بدون أب أثر قوى فى زيغ كثير من النصارى وكثير من اليهود : لقد غالى النصارى فقالوا : إنه ابن الله . وأسرف اليهود فى عنادهم فرموا أمه الطاهرة بالفجور .

---

(١) سورة المائدة الآيات : ١١٦ – ١١٨ .
(٢) سورة المائدة آية : ١٧ .
(٣) سورة المائدة آيتا : ٧٢ – ٧٣ .
(٤) سورة المائدة آية : ٧٥ .

على هؤلاء وأولئك يرد القرآن فى بساطة ووضوح بأن :

(إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم : خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون)[١]

واليهود والنصارى يعترفون بأن آدم خلقه الله دون أب وأم ، فأمره إذن أعجب وأغرب من أمر عيسى ، فما كان لهم أن يغالوا فى أمره غير الحق ، أو يسرفوا فى الانتقاص من أمه .

اليهود :

وإذا كان المسيحيون هم أقرب الناس مودة للمسلمين فإن أشد الناس عداوة للمسلمين هم اليهود ، ومثلهم فى ذلك مثل الذين أشركوا ، هكذا يصفهم القرآن ويستفيض فى الجدل معهم استفاضة تتناسب هى وتاريخهم الطويل ، وعنادهم الشديد ومكرهم الخبيث .

ولقد كان الصراع قويًّا عنيفاً بين الإسلام واليهود ؛ كان صراعاً بالمنطق والبرهان ، وكان صراعاً بالسيف والرمح ، ولا يعنينا هنا التحدث عن السيف والرمح وإنما نتحدث عن الصراع بالمنطق والبرهان .

ولقد خص القرآن آل عمران من بنى إسرائيل بسورة من أكبر سوره : هى سورة آل عمران : سماها باسمهم . وسورة المائدة ، وهى من أكبر سور القرآن أيضاً تكاد تكون مقصورة عليهم . وفى القرآن سورة يوسف وسورة إبراهيم وسورة مريم وسورة الأنبياء وكلها ملأى بالحديث عن بنى إسرائيل ، أما سورة الأعراف فإنها تروى قصة موسى مع فرعون ومع السحرة المصريين ، وتتحدث عن إخراج بنى إسرائيل من مصر ، ومناجاة موسى لربه وأخذه الألواح ، وتذكر انحراف بنى إسرائيل ، واتخاذهم العجل معبوداً وغير ذلك من شئونهم .

على أن القرآن لايقتصر – فى الحديث عن بنى إسرائيل – على هذه السور التى ذكرناها ، وإنما تخلل الحديث عن بنى إسرائيل كثيراً من السور .

---

(١) سورة آل عمران آية : ٥٩ .

من ذلك نرى مبلغ الأهمية التى وجهها القرآن إلى بنى إسرائيل لإرشادهم إلى الجادة ، ولقد صور القرآن فى أحاديثه هذه أخلاقهم فى وضوح ، وكان فى ذلك كطبيب يشخص المرض تشخيصاً دقيقاً حتى يسهل العلاج ، ولكن اليهود الذين بلغوا من موسى مبلغاً جعله يقول :

(رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين)[١]

كانوا عصيين على العلاج ، حتى لقد أيئسوا داود وعيسى – عليهما السلام – فلعناهم :

(لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لايتناهون عن منكرٍ فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون)[٢]

ولقد وصل بهم الأمر إلى أن كانوا يقتلون أنبياءهم بغير حق .

بيد أن هذه الناحية الأخلاقية ليست من أهدافنا الأولى فى هذا الكتاب وتصفح القرآن خير هاد لمعرفتها ، والذى يعنينا هنا إنما هو عقيدة اليهود .

والقرآن يذكر أنهم اتخذوا العجل معبوداً وأنهم قالوا : « عُزَيْرٌ ابن الله » وأنكروا رسالة سيدنا محمد وعيسى – عليهما السلام – . وقد تحدثنا عن رد – القرآن على هذه الأمور فيما سبق .

تحديد فكرة الإلهية :

وإذا بدد القرآن كل شبهة حلقت فى سماء فكرة الألوهية ، وثنية كانت تلك الفكرة أو كتابية – فإنه خص فكرة الألوهية بسورة واضحة ، جلية ، سهلة ، موجزة ، سماها : سورة الإخلاص : لتخليصها تلك الفكرة من شوائب كل باطل وضلال :

(بسم الله الرحمن الرحيم .

قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد)[٣]

---

(١) سورة المائدة آية : ٢٥ .

(٢) سورة المائدة آيتا : ٧٨ – ٧٩ .

(٣) سورة الإخلاص .

ولقد ورد فى الخبر : أنها تعدل ثلث القرآن ؛ لأن من عرف معناها حق المعرفة ، وأدرك ما أشارت إليه إدراك صاحب البصيرة المستنيرة – لم يكن بقية ماجاء فى التوحيد والتنزيه عنده إلا تفصيلاً لما علم ، وشرحاً لما حصل)[١]

فى هذه السورة يوصف الله : بأنه « أحد » وكلمة : (أحد) : أبلغ فى الدلالة على الوحدة من كلمة (واحد) فأحدية الله لاتركب فيها بوجه من الوجوه . إنها ليست كواحدية الإنسان الذى يتركب من أعضاء ووحدات .

وفى هذه الآية فكرة الإسلام فى مقابل فكرة التعدد على أى وضع كانت : (لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة)[٢]

إنها تنفى التثليث وتنفى التركب ، إنها رد على النصارى ، وعلى مشركى العرب ، وهى رد على مشبهة الإسلام فيما بعد .

و (الله الصمد) فإليه يرجع الأمر كله ، وهو – وإن كان قد سبب الأسباب ، وأجرى سننه على أوضاع محددة ، وطلب إلينا أن نتخذ الأسباب – مع ذلك هو المرجع الأول والأخير لكل مايجرى فى هذا العالم من شئون ، فإذا ماتوجهت الآمال إلى سواه فقد ضلت وانحرفت ، ولقد ضلت بسبب ذلك النصارى واليهود فقد : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله)[٣]

وفى هذه الآية ، بصورة عامة : توجيه لكل من كان يعلق آماله على غير الله .

(لم يلد ولم يولد)

ينزه الله عن أن يلد أحداً . ويشير إلى فساد رأى القائلين بأن له ابناً ، أو بنات ، وهم مشركو العرب ، والهند ، والنصارى ، وغيرهم ، ويبين لهم أن الابنية تستلزم الولادة والتعبير بالانبثاق ونحوه لايغير المعنى ، والولادة إنما تكون من الحى الذى له مزاج ، وما له مزاج ، فهو مركب ، ونهايته إلى انحلال – وفناء ، وهو جل شأنه منزه عن ذلك :

وقوله : لم يولد : يصرح ببطلان مايزعمه بعض أرباب الأديان : من أن ابناً لله

---

(١) الشيخ محمد عبده – جزء عم ص ١٧٦ .

(٢) سورة المائدة آية : ٧٣ .

(٣) سورة التوبة آية : ٣١ .

يكون إلها ، ويعبد عبادة الإله ، ويقصد فيما يقصد فيه الإله ، بل لايستحى الغالون منهم أن يعبروا عن والدته بـ « أم الله القادرة » فإن المولود : حادث ، ولا يكون إلا بمزاج ، وهو لايسلم من عاقبة الفناء .

ودعوى أنه أزلى مع أبيه مما لايمكن تعقله ، ولا تغير من حقيقة الأمر شيئا .

فإذا أراد أحد من هؤلاء أن يدعى التنزيه فما عليه إلا أن يقلع عن هذه الألفاظ والنسب ويقول : كما نقول :

(الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد) .

وهو نفى لما يعتقده بعض المبطلين من أن لله نداً فى أفعاله يعاكسه فى أعماله على نحو مايعتقد بعض الوثنيين فى الشيطان مثلاً .

فقد نفى بهذه الصورة جميع أنواع الإشراك ، وقرر جميع أصول التوحيد والتنزيه[1] .

١٦

القرآن وأسئلة العرب .

فى هذه الفترة من صدر الإسلام – فترة حياة الرسول – ﷺ – كان القرآن ، وكان الرسول فى أحاديثه يلبيان حاجات الأمة ، اعتقادية كانت ، أو تشريعية ، أو خلقية ، وكانت الأسئلة تترى موجهة إلى الرسول ﷺ ، فيجيب عنها الوحى القرآنى تارة ، وتجيب عنها أحاديث الرسول تارة أخرى ، وأسئلة المجتمع إذ ذاك لم تكن تنتهى إلى حد : وكانوا يسألون الرسول فى كل صغيرة وكبيرة : فقد سألوه عن الروح ، وسألوه فى القدر ، وسألوه عن الأزل ، وسألوه عن المصير وسألوه عن الله ، وعن الإيمان والإسلام ، والإحسان ، والساعة .

وسألوه عن الخمر والميسر ، والمأكل والمشرب ، والأهلة ، والمحيض ، وسألوه عن كل ما كان يجول فى أذهانهم .

(١) الشيخ محمد عبده تفسير جزء عم ١٧٨ – ١٧٩ .

وكان القرآن سجلاً يصور الكثير من الأسئلة ويعطى الإجابة عنها ، وهاهى ذى آيات متتالية من سورة البقرة توضح هذه الفكرة :

(يسألونك : ماذا ينفقون ، قل : ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ، وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم ، كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لاتعلمون .

يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل : قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله وكفر به ، والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ، ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ، ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل اللهأولئك يرجون رحمة الله ، والله غفور رحيم .

يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما .

ويسألونك : ماذا ينفقون ، قل : العفو ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة .

ويسألونك عن اليتامى : قل إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ، ولو شاء الله لأعنتكم ، إن الله عزيز حكيم ، ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ ، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولاتنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار ، والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ، ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون .

ويسألونك عن المحيض ، قل : هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ، ولاتقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)[1] .

(١) سورة البقرة : الآيات : ٢١٥-٢٢٢ .

أظن أننا بعد الذى قدمناه لسنا فى حاجة إلى الرد على الأستاذ دى بوى فى قوله :

« جاء القرآن للمسلمين بدين ، ولم يجئهم بنظريات ، وتلقوا فيه أحكاماً ولكنهم لم يتلقوا فيه عقائد »

لقد رأينا بوضوح فيما سبق : أن القرآن جاء للمسلمين بدين ، وبنظريات ، وبأحكام وبعقائد .

ولاشك أن الإمام الرازى كان أصدق رأيا ، وأعمق غوراً إذ يقول معبراً عن الحقيقة :

« إن الآيات الواردة فى الأحكام الشرعية أقل من ستمائة آية ، وأما البواقى ففى بيان التوحيد ، والنبوة والرد على عبدة الأوثان ، وأصناف المشركين » .

ويقول : « وأما محمد عليه الصلاة والسلام فاشتغاله بالدلائل على التوحيد والنبوة والمعاد – أظهر من أن يحتاج فيه إلى التطويل » ا . هـ .

ولم يرفع الرسول – ﷺ – إلا وقد أكمل الله دينه ، وأتم نعمته على المسلمين :

(اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً)[1] .

لقد أكمل الله للمسلمين الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً وقد أتمه عز وجل فلا ينقصه أبداً ، وقد رضيه فلا يسخطه أبداً .

---

(١) سورة المائدة : آية ٣ .

الفصل الرابع

فى تفسير القرآن

(حم . والكتاب المبين . إنا أنزلناه فى ليلةٍ مباركة ، إنا كنَّا منذرين . فيها يفرق كل أمر حكيم . أمرا من عندنا ، إنا كنا مرسلين . رحمة من ربك ، إنه هو السميع العليم) .[1] .

لقد أنزله الله فى ليلة مباركة منه سبحانه ، ولقد أنزله فى ليلة القدر ، ليلة السلام والهداية ، ليلة السلام الفردى ، والهداية الفردية ، وليلة السلام الجماعى ، والهداية الجماعية .

إن القرآن رسالة رب العالمين الرحمن الرحيم إلى الكون كله بجميع عوالمه وهو رسالة رحمة : (وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين)[2]

وهو لم ينزل لعصر دون عصر ، ولا لبيئة دون بيئة ، وإنما أنزل للإنسانية حاضرها وباديها وحاضرها ومستقبلها . ومن أجل ذلك فإن الزمن هو الذى يجلى معانيه على مر الأيام ، وإن خير تفسير له هو الزمن .

والقرآن بهذا جديد باستمرار ، نضر على الدوام ، لا تنقضى عجائبه ، ولا يبلى على الزمن ، وكل شرح مطول له مهما استفاض لا يؤدى كل معانيه .

ولقد تجنب رسول الله ﷺ أن يملى له شرحاً مستفيضاً ، أو تفسيراً له مطولاً رغبة منه صلوات الله وسلامه عليه فى أن يقرأه القارئون بالأسلوب الإلهى النضر اليانع ، وتوجيهاً منه صلوات الله عليه فى أن يقرأه القارئ وكأنما يتلقاه من فم الوحى مباشرة غضًّا نضرًا ، فيكون له مصدر هداية ، وباعث رشد ، ونبعاً فياضاً بالحكمة .

وتجنب كبار الصحابة رضوان الله عليهم أن تستفيض أقلامهم بشرحه وتفسيره متأسين فى ذلك بالرسول صلوات الله عليه ، ورغبة منهم فى ألا تقوم الآراء البشرية ستائر تحجب النور القرآنى أن يصل إلى القلوب مباشرة صافياً نقيًّا . ولم يحاولوا أن يكونوا حجاباً بين القرآن وقلوب القراء ، وكان فى استطاعتهم أن يكتبوا فى تفسيره

(١) سورة الدخان الآيات : ١-٦ . (٢) سورة الأنبياء آية : ١٠٧ .

وتأويله ما شاء الله أن يكتبوا . ولقد روى عن بعضهم : أنه كان يتأتى له أن يكتب فى تفسير الفاتحة وحدها حمل بعير من الأسفار ، ولكنه لم يفعل ؛ كذلك لم يفعل كبار الصحابة حتى لا تتدخل البشرية المحدودة فى المجال الإلهى اللامحدود . ومما لا ريب فيه أن التفسير تحديد ، وأن الشرح تقييد ، وأن التأويل يتخلله عنصر من التخمين . وذلك كله تحديد لما لا يمكن أن يحد ، وتقييد للانطلاق النورانى . وتخمين فى مجال يتسامى عن التخمين :

(قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً)[١] .

(ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم)[٢] .

أرأيت إلى شعاع الشمس فياضاً مسترسلاً ، يغمر الكون بلألائه الذهبى ، لا يحجبه غيم ولا يستره حجاب ؟ أرأيت إلى ضوء القمر فضيًّا متألقاً ، لا يستره سحاب ولا يحجبه شىء ؟ أرأيت إلى النور والضياء ينزل من السماء مباشرة صافياً نقيًّا فيتلقاه الإنسان ، وينعم به ؟ إن مثل ذلك كمثل نور القرآن ولألائه ، يصل إلى القلب مباشرة يطبعه طابع الجلال الإلهى والجمال الربانى لا يحجبه شرح ، ولا يستره تفسير ، ولا يحول بينه وبين القلب تأويل متحكم ، ولا تتدخل فيه البشرية بأى نوع من أنواع نقصها وقصورها .

وتجنب كبار الصحابة إذن أن يصل القرآن إلى قلوب الناس من خلال شروحهم وتأويلاتهم توجهه بشريتهم وتحدده أذهانهم .

ولقد أنزل الله القرآن ؛ لنعمل بما فيه ، لا لنتبارى فى جعله كتاباً فى علم الكلام نضرب بعضه ببعض ، لننتهى برأى بشرى يعارضه رأى بشرى ، قام هو الآخر على جعل كتاب الله كتاباً فى علم الكلام ، أخذ يضرب بعضه ببعض .

لقد أنزل الله القرآن هداية ؛ لنعمل بآياته المحكمات اللواتى هن أم الكتاب ، ولنبتعد عن الخوض فيما تشابه منه ؛ ولنجعله فى كل حالة من الحالات إماماً نلتزم

---

(١) سورة الكهف آية : ١٠٩ . (٢) سورة لقمان آية : ٢٧ .

هديه ونتخلق بأخلاقه ، حتى نكون نحن قرآناً ، متأسين فى ذلك برسول الله صلوات الله عليه ، الذى كان على وجه الأرض قرآناً كريماً .

١ – الإمام النسفى

من علماء المذهب الحنفى المشهورين ، وممن لهم قدم راسخة فى كثير من العلوم ، المفسر حافظ الدين ، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى ، المنسوب إلى نسف ببلاد السند بين جيحون وسمرقند .

كان عالماً بالفقه وأصول الدين وأصول الفقه والتفسير ، وامتازت مؤلفاته بجودة التحرى ودقة التعبير وشدة التركيز وحشد المعلومات المتنوعة فى حيز بسيط ؛ حتى ليعسر على غير المتخصص الأخذ عنها وفهم كل ما يشير إليه .

وقد استفاد من شتى طرق البحث السابق عليه ، فخرج عن استدلالات المتكلمين وجدل الأصوليين واستنباط الفقهاء ، وتميز بطريقته الخاصة فى التأليف ؛ كما استفاد من شيوخه المشاهير ومنهم : شمس الأئمة الكردى ، وأحمد بن محمد العتابى ، وغيرهما من كبار العلماء المتخصصين .

وللإمام النسفى مؤلفات كثيرة اشتهر بها كمفسر وفقيه وباحث فى أصول الدين وباحث فى أصول الفقه ومنها .

١ – عمدة العقائد فى الكلام .

٢ – شرح عمدة العقائد وسماه الاعتماد .

٣ – منار الأنوار فى أصول الفقه .

٤ – الكافى فى شرح الوافى فى الفقه الحنفى .

٥ – كنز الدقائق فى الفقه الحنفى .

وكان على نسق غيره من كبار العلماء المسلمين معروفا بالزهد والصلاح والتقوى ، فضلا عن تفرغه للعلم والدراسة والبحوث . وقد اشتهر علمه وفضله فى عصره وبعد عصره ، وبارك الله فى مؤلفاته ، فأصبحت مرجع الباحثين ، ومجال

البحث بين الدارسين ؛ لما فيها من تدقيق وتحقيق واكتفاء بالإشارة عن التفضيل وبالإيجاز عن الإطناب .

وقدره العلماء حق قدره ؛ فقد كتب عنه صاحب (الدرر الكامنة) ، فوصفه بهذه الكلمة المدوية : (علاَّمة الدنيا) .

وكتب عنه الحافظ عبد القادر فى طبقاته ، فقال : « أحد الزهاد المتأخرين ، صاحب التصانيف المفيدة فى الفقه والأصول . له المستصفى فى شرح المنظومة ، وله شرح النافع سماه بالمنافع ، وله الكافى فى شرح الوافى ، وله كنز الدقائق ، وله المنار فى أصول الفقه ، وله العمدة فى أصول الدين ، تفقه على شمس الأئمة الكردى ، وروى الزيادات عن أحمد بن محمد العتابى » .

والنسفى باعتباره من أئمة أهل السنة كان له مواقف فى غاية القوة ، وفى غاية العمق ، فى الرد على كل انحراف فى تفسير القرآن ، وخصوصاً تفسير الكشاف ، ولم يقتصر فى الرد على المعتزلة على ما كتبه فى تفسير الكشاف ؛ وإنما فعل ذلك فى كل كتبه الكلامية التى كانت مجال اهتمام فى رحاب الأزهر ، وقررت على الطلبة فى مختلف مراحل التعليم ، وقام الأساتذة باختصارها وبشرحها وبالتعليق عليها مستفيدين منها ومفيدين لغيرهم بها .

وكانت وفاة الإمام النسفى رحمه الله عام واحد وسبعمائة من الهجرة ببلدة إيذج بين خوزستان وأصبهان .

رحمه الله ونفع بعلمه .

تفسيره :

سماه الإمام النسفى (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) ، ويعتبر من التفاسير العلمية المحررة ، ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل .

وقد تحدث الإمام النسفى عن السبب الذى دعاه إلى تأليف هذا التفسير فقال :

(سألنى من تتعين إجابته كتاباً وسطاً فى التأويلات ، جامعاً لوجوه الإعراب والقراءات ، متضمناً لدقائق علمى البديع والإشارات ، حالياً بأقاويل أهل السنة

والجماعة ، خالياً من أباطيل أهل البدع والضلالة ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل) .

ثم ذكر أنه تردد فى الإجابة ، ولكنه قطع هذا التردد ، وسار فى تأليفه بجد حتى أتمه فى مدة يسيرة .

والناظر فى هذا التفسير يجد فيه فهماً واعياً ، وخبرة دقيقة ، واطلاعا واسعاً ، وحسن استفادة من هذا الاطلاع . .

وقد استفاد من تفسيرى البيضاوى والكشاف أيما استفادة : فأخذ من البيضاوى معناه الدقيق وفهمه الواعى وتوجيهه السديد وإيجازه المركز ؛ وأخذ من الزمخشرى فى كشافه خبرته الواسعة باللغة ومناقشته للآراء المتعددة .

على أنه لم يقع فيما وقع فيه الزمخشرى فى كشافه من التعصب لمذهب الاعتزال وحمل الآيات فى تعسف على تأييد أصوله وقواعده ؛ إنه على العكس من ذلك اتخذ موقفاً مضاداً ، فحارب ما يخالف المذهب الأشعرى منتقداً طريقة الزمخشرى ، رادًّا على حججه .

ويمتاز تفسير النسفى بإقلاله من الإسرائيليات ، وابتعاده ما استطاع عنها ؛ كما يمتاز بتحريه فى اختيار الأحاديث . ويظهر ذلك أبلغ ما يظهر فى تركه ذكر الأحاديث الموضوعة فى فضائل السور .

كما أنه لم يتوسع فى الإعراب ، ولم يدخل فى تفصيلات فرعية تشتت الذهن ، وتبتعد بالقارئ عن الجو القرآنى .

ولم يخل تفسيره من الإشارة إلى المذاهب الفقهية فى بعض آيات الأحكام ، والانتصار لمذهبه الحنفى .

ولا يسلم تفسير النسفى على وجه العموم من النقد .

فلقد اكتفى بإشارات فى غاية الإيجاز الى الآراء المختلفة فيما يتعلق بالآيات التى استدلت بها الفرق ، وكأنه يفترض شهرة هذه الآراء ومعرفة الكل بها ودوام هذه المعرفة ، ويتمثل لنا ذلك فى تفسيره لقوله تعالى : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) من سورة الملك آية ١٤ .

ولم يسلم من الإسرائيليات برغم احتياطه وتحفظه ، فتراه عند تفسيره لقوله تعالى من سورة النمل آية : ١٦ (وورث سليمان داود وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين) يقول : روى أنه صاحب فاختة ، فأخبر أنها تقول : ليت ذا الخلق لم يخلقوا . وصاح طاووس فقال .. ثم ذكر أصنافاً من الطير ، وقول كل صنف من هذه الأصناف دون أن يعقب على ذلك ، بل دون أن يحترز من ذكر مثل هذه الأقوال التى لا سند لها من الأحاديث الصحيحة .

ونأخذ عليه : أن أسلوبه يعلو على مستوى العامة ، حيث حشد فيه ألواناً من العلوم المتعلقة بالقرآن لا يفهمها إلا من عنده فكرة سابقة عنها . وفى آية المائدة يذكر آراء عن الحسن وعن وهب وعن غيرهما دون أن يوجه النظر إلى ما رواه الترمذى بسنده عن عمار بن ياسر : قال رسول الله ﷺ : (أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً . . .)

نماذج منه :

١ – يقول الله تعالى :

(والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم)

(والسابقون) مبتدأ ، (الأولون) صفة لهم (من المهاجرين) تبيين لهم وهم الذين صلوا إلى القبلتين أو الذين شهدوا بدراً ، أو بيعة الرضوان (والأنصار) عطف على المهاجرين ، أى ومن الأنصار ، وهم أهل بيعة العقبة الأولى ، وكانوا سبعة نفر ، وأهل العقبة (الثانية) وكانوا سبعين (والذين اتبعوهم بإحسان) من المهاجرين والأنصار ، فكانوا سائر الصحابة ، وقيل : هم الذين اتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة والخبر (رضى الله عنهم) بأعمالهم الحسنة (ورضوا عنه) بما أفاض عليهم من نعمته الدينية والدنيوية (وأعد لهم) عطف على رضى (جنات تجرى تحتها الأنهار) من تحتها مكى (خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم) .

٢ – يقول الله تعالى :

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ، فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) التوبة آية ١٢٨ ، ١٢٩ .

« لقد جاءكم رسول » محمد عليه السلام (من أنفسكم) من جنسكم ، ومن نسبكم عربى قرشى مثلكم (عزيز عليه ما عنتم) شديد عليه شاق – لكونه بعضاً منكم – عنتكم لقاؤكم المكروه ، فهو يخاف عليكم (حريص عليكم) على إيمانكم (بالمؤمنين) منكم ومن غيركم (رءوف رحيم) قيل : لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله ﷺ (فإن تولوا) فإن أعرضوا عن الإيمان بك وناصبوك (فقل حسبى الله) فاستعن بالله وفوض إليه أمورك ، فهو كافيك وناصرك عليهم (لا إله إلا هو عليه توكلت) فوضت أمرى إليه (وهو رب العرش) هو أعظم خلق الله ، خلق مطافاً لأهل السماء ، وقبلة للدعاء (العظيم) بالجر وقرىء بالرفع على نعت الرب جل وعز ، وعن أبى آخر آياته نزلت (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) الآية .

٢ – جمال الدين القاسمى

من علماء الشام الكبار المحقق الجليل جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم القاسمى .

ولد فى سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف ، ونشأ فى حجر والده ، وتلقى مبادئ العلوم الدينية والشرعية على يديه ، ثم تلقى سائر العلوم على كثير من علماء عصره ، ومن أبرزهم الشيخ بكرى العطار والشيخ عبد الرازق البطار .

مدحه أمير البيان شكيب أرسلان ، فكان مما قال عنه : كان فى هذه الحقبة الأخيرة جمال دمشق وجمال القطر الشامى بأسره فى غزارة فضله وسعة علمه وشفوف حسه وذكاء نفسه وكرم أخلاقه وشرف منازعه وجمعه بين الشمائل الباهية والمعارف المتناهية .

وقد سما فى العلم والفضل حتى صار وقال عنه الشيخ رشيد رضا : هو علامة الشام ونادرة الأيام المجدد لعلوم الإسلام محيى السنة بالعلم والعمل والتعليم والتهذيب والتأليف وأحد حلقات الاتصال بين هدى السلف والارتقاء الذى يقتضيه الزمن الفقيه الأصولى المفسر المحدث الأديب المفتن التقى الأواب الحليم الأواه العفيف النزيه صاحب التصانيف الممتعة والأبحاث المقنعة .

بدأ الشيخ حياته العامية مدرساً فى حياة والده ، فلما توفى والده تولى مكانه فى خدمة إمامة فى جامع السنانين بدمشق ، ومارس نشاطه العلمى فى التأليف والشرح والنقد والإصلاح حتى ازدهرت تآليفه وكثرت مصنفاته ، ووصلْ عددها إلى ما يقرب من الثمانين ما بين مخطوط ومطبوع ومن أشهرها :

* محاسن التأويل فى تفسير القرآن الكريم .
* فصل الكلام فى حقيقة عود الروح إلى الميت حين الكلام .
* بحث فى جمع القراءات المتعارف عليها .
* دلائل التوحيد .
* موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين .
* قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث .

وتعتمد طريقته فى التأليف على النقل الواعى من التراث الإسلامى الزاخر ، والاكتفاء بالترتيب والتبويب والتعقيب اللطيف أو الاستدراك الخفيف . وكان من المعجبين بالشيخ ابن تيمية ومن أقطاب المدرسة السلفية . وقد اكتسب خبرة واسعة فى الاطلاع والإحاطة ، حتى لقد حكى عن نفسه أنه قد من الله عليه بفضله فأسمع صحيح مسلم رواية ودراية فى مجالس من أربعين يوما ، وسنن ابن ماجه إحدى وعشرين يوماً ، والموطأ فى تسعة عشر يوماً ، وطالع بنفسه لنفسه كتاب تقريب التهذيب لابن حجر مع تصحيح سهو القلم فيه وضبطه وتحشيته من نسخة مصححة جداً ثم قال : وهذه الكتب قرأتها بعضها إثر بعض فأجهدت نفسى وبصرى حتى رمدت .

ولقد ذكرنا ذلك ، لنعرف بهمته واطلاعه الواسع وعلمه الغزير وعنايته

بالإصلاح وإخلاصه فى بث الدعوة ونشر الدين والحرص على التجديد .

وقد اتهم بالدعوة الى مذهب جديد فى الدين سمى بالمذهب الجمالى ، وقبض عليه ، وحقق معه ، ولكنه رد التهمة ، وأثبت براءته ، فأخلى سبيله .

ولم تخل حياته من التنقل والارتحال ، فرحل إلى مصر ، وزار المدينة ، وعاد إلى دمشق ، فانقطع فى منزله للتصنيف وإلقاء الدروس الخاصة والعامة فى التفسير والأدب وعلوم الشريعة ، إلى أن واتاه الموت فى شهر رجب من سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وألف من الهجرة .

رحمه الله ونفع به .

تفسيره :

إذا أحببت أن تقرأ تفسيراً كاملا للقرآن لا تجد فيه خرافة ولا أسطورة ولا شيئاً من الإسرائيليات المذمومة التى حشيت بها التفاسير – فعليك بكتاب الإمام القاسمى « محاسن التأويل » الذى فسر به القرآن الكريم تفسيراً يعتبر نموذجاً إلى حد كبير . . .

وقد تحدث القاسمى فى مقدمة تفسيره فقال بعد أن أثنى على القرآن :

(وإنى كنت حركت الهمة إلى تحصيل ما فيه من الفنون والاكتحال بإثمد مطالبه لتنوير العيون ، فأكببت على النظر فيه ، وشغفت بتدبر لآلئ عقوده ودراريه ، وتصفحت ما قدر لى من تفاسير السابقين وتعرفت – حين درست – ما تخللها من الغث والسمين – ورأيت كلا – بقدر وسعه – حام حول مقاصده ، وبمقدار طاقته جال فى ميدان دلائله وشواهده ، وبعد أن صرفت فى الكشف عن حقائقه شطراً من عمرى ، ووقفت على الفحص عن **دقائقه** قدرا من دهرى أردت أن أنخرط فى سلك مفسريه الأكابر قبل أن تبلى السرائر وتفنى العناصر) .

وقد استخار الله تعالى فى تسميته وتأليفه ، ثم شرع فى تنفيذ ما عزم عليه ، فكان هذا الكتاب الجليل .

وكان شروعه فى هذا التفسير بعد تكرار الاستخارة فى العشر الأول من شوال سنة ست عشرة وثلثمائة وألف من الهجرة . . وكان هذا العمل الجليل تفسيراً حافلاً فى

سبعة عشر مجلداً ، سد فراغاً وحقق نفعاً للعامة والخاصة ونفع الله به المسلمين .

والناظر فى هذا التفسير يجد أن مؤلفه قد أفرد جزءاً كاملا مقدمةً لتفسيره . وفى هذه المقدمة يتجلى منهجه فى التفسير ، بل فى التأليف عموماً .

لقد ناقش قضايا عامة وخطيرة فيما يتصل بالتفسير ، ونقل آراء كثير من مشاهير العلماء فى الأصول والتفسير وسائر العلوم القرآنية .

لقد تحدث عن مصادر التفسير وعد أن أصولها أربعة :

الأول : النقل عن النبى ﷺ وعلى المفسر بطريق النقل أن يحذر من الضعيف والموضوع .

الثانى : الأخذ بقول الصحابى ؛ إذ هو المعاصر للتنزيل والفاهم لجو القرآن .

الثالث : الأخذ بمطلق اللغة .

الرابع : التفسير بما يقتضيه معنى الكلام ومفهوم الشرع .

ومصادر مقدمته غالباً من الشيوخ المعروفين :

الإمام الشاطبى والإمام ابن تيمية وشذرات من كلام العز بن عبد السلام ، وكذلك الإمام الغزالى والراغب الأصفهانى وبعض العلماء المحدثين مثل الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا .

لقد كان الإمام القاسمى بوفرة اطلاعه ودقة فهمه وأمانته فى النقل – ينتقى أجود الأقوال فيما يختص بموضوع بحثه ، ثم ينقله فى كتب .

وعلى هذا النهج جرى فى تفسيره ، فكان أشبه ما يكون بحديقة غناء لا ترى فيها إلا زرعاً ناضراً أو ورداً عاطراً ، ولا تجد فيه ما يؤذى النفس ويثير الشعور . ويمتاز هذا التفسير الجليل ، بالإضافة إلى التحرى فى النقل وحسن الاختيار والبعد عن الضعيف والموضوع – بما يأتى :

١ – العناية بالمعانى اللغوية للمفردات وتوجيه الإعراب فى سهولة ويسر دون تفريع أو تطويل .

٢ – اعتماده على القرآن نفسه ، ثم على السنة الصحيحة ، ثم على أقوال الصحابة وآراء السلف الصالح .

٣ – اهتمامه بالآيات التى تحتاج إلى بحث وإطالة النفس فيها ، وذلك أن فى القرآن آيات بينة واضحة لا تحتاج إلى بحث ، إنها واضحة من ناحية المعنى .

وفى القرآن آيات واضحة ، ولكن بعض المفسرين قد حاول إثارة الجدل فيها أو أخطأ فى فهمها أو فسرها إسرائيلات أو انحرفت بها الأهواء على أى وضع كانت ويشتد اهتمام مفسرنا بمثل هذه الآيات شارحاً ومبيناً محققاً للحق وكاشفاً لزيف الباطل ، وينقل فى سبيل ذلك عن القدماء ما يؤيد فكرته ، ويتخذ من هذا التأييد كمصدر أول : القرآن ، فإنه يفسر بعضه بعضاً ، ويتخذ كذلك الأحاديث الصحيحة الشريفة عن رسول الله ﷺ كمصدر آخر ، ثم ينقل عن العلماء القدامى وعن العلماء المحدثين ما يؤيد وجهة نظره ، وهى فى الأغلب الأعم وجهة نظر سليمة .

٤ – اهتمامه بذكر وجوه القراءات مع الترجيح بينها .

يقول فى تفسير قوله تعالى (فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه) آية ١٦ من سورة البقرة :

فأزلهما الشيطان عنها : أى أذهبهما عن الجنة وأبعدهما يقال : نزل عن مرتبته وزل عنى ذاك : إذا ذهب عنك .. وزل من الشهر كذا .. وقال ابن جرير : فأزلهما بتشديد اللام بمعنى استزلهما .. من قولك زل الرجل فى دينه إذا هفا فيه وأخطأ فأتى ما ليس له إتيان فيه . . وأزله غيره إذا سبب له ما يزل من أجله فى دينه أو دنياه . . وقرىء (فأزالهما) بالألف من التنمية فأخرجهما مما كانا فيه من الرغد والنعيم والكرامة .

ولقد تأثر الإمام القاسمى أيما تأثر بالإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، اهتم اهتماماً واضحاً بكل ما انفردا به من آراء : إنه ينقل عن ابن تيمية رأيه فى مجازات القرآن ، وهو من الآراء التى اشتهر بها ابن تيمية وخالف فيها كثيراً من العلماء .

وأعجب بالإمام محمد عبده أيما إعجاب ، ونقل عنه رأيه فى وجوه التفسير ومراتبه ، نقلا عن مقدمة تفسير الإمام محمد عبده المشهور . . نقله مؤثرا له مقراً به .

ونستطيع أن نقول بحق : لقد تأثر القاسمى بمنهج الإمام محمد عبده ونسق بينه

وبين منهج ابن تيمية ، لكن إعجابه بالشيخ محمد عبده لم يمنعه من مخالفته فى مسائل الملائكة وآدم وإبليس والسحر وغير ذلك : لم يقل برأى الإمام فى هذه الأمور ، وسار على رأى الجمهور فى أنها حقائق ، وليست تعبيراً بالمثال والإرشاد والتفهيم .

ولعل هذا يكشف لنا جانباً هاماً من جوانب الإمام القاسمى .

لقد كان يعجب بقدر ، وكان يتحكم فيما يختار ، ولا ينساق وراء الآراء تبعا لشهرة قائلها وانتشارها بين الناس .

ومن المعالم البارزة فى تفسيره الاعتناء بالربط بين الآيات المختلفة والكشف عن مظاهر الحكمة فى ترتيب القرآن : فى سورة البقرة مثلا يتحدث عن الانتقال من قصة آدم ودعوة بنيه إلى الدين ، إلى الحديث عن بنى إسرائيل فى قوله تعالى :

(قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون) . يتحدث عن الصلة بين الآيات فيقول :

ولما قدم الله تعالى دعوة الناس عموماً وذكر مبدأهم . . دعا بنى إسرائيل خصوصا وهم اليهود — لأنهم كانوا أولى الناس بالإيمان بالنبى ﷺ ، لأنهم يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، فدعاهم تارة بالملاطفة ، وتارة بالتخويف ، وتارة بإقامة الحجة وتوبيخهم على سوء أفعالهم .

ونعود فنقول :

إن التفسير تعبير حى عن الشيخ القاسمى فى سعة علمه ووفرة مراجعه وحسن انتقائه وسلامة منهجه ودقته فى التعبير واقتصاره على قدر الحاجة وقد ضم عصارات الأفكار وخلاصة آراء العلماء فى كثير من الآفاق العلمية والفكرية والعملية ، كما عبر عنها القرآن .

وبلغ من تأثر الإمام القاسمى بابن تيمية أنه عد من مدرسته . ولو كان من مدرسة ابن تيمية فى الفقه مثلا أو فى مسائل الأخلاق لكان الأمر سهلا لا يحتاج إلى

تنبيه ، ولكنه كان من مدرسة ابن تيمية فى إثبات الجهة وفى عقيدة الصفات . وقد سار على هذا النحو فى تفسيره . .

وهذا المنهج غير مسلم به عند جمهور العلماء من أهل السنة .

وما يؤخذ على الإمام القاسمى فى تفسيراته أن استمداده من الإمام ابن كثير بلغ حدا كبيرا . . إنه يكاد يشبه تفسير الإمام ابن كثير فى العديد من الموضوعات . ومع ذلك فإن هذا التشابه القوى لا ينزله عن أصالته فهو نابع من اتحاد الرأى وتشابه الأفكار لا من النقل والتقليد .

نموذج منه :

قال تعالى :

(ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون) .

(أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين)

(وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم) .

(وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون) [1] .

(ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) :

أى : لو كان ما كرهوه من الحق الذى هو التوحيد والعدل المبعوث بهما الرسول صلوات الله عليه موافقاً لأهوائهم المتفرقة فى الباطل الناشئة عن نفوسهم الظالمة المظلمة لفسد نظام الكون : لأن مناط النظام ليس إلا ذلك وفيه من تنويه شأن الحق والتنبيه على سمو مكانه ما لا يخفى .

(بل أتيناهم بذكرهم) إضراب عن توبيخهم بكراهته وانتقال إلى لومهم بالنفور عما ترغب فيه كل نفس من خيرها : أى ليس مكروهاً بل هو عظة لهم لو اتعظوا أو فخرهم أو متمناهم ؛ لأنهم كانوا يقولون : لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكنا من عباد الله المخلصين

---

(١) سورة المؤمنون الآيات : ٧١ – ٧٤ .

(فهم عن ذكرهم معرضون) : أى بالنكوص عنه وأعاد الذكر تفخيما وإضافة لهم لسبقه وفى سورة الأنبياء (ذكر ربهم) لاقتضاء ما قبله له .

(أم تسألهم خرجا) أى جعلا على أداء الرسالة فلأجل ذلك لا يؤمنون (فخراج ربك خير) أى عطاؤه .

(وهو خير الرازقين وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم . وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون) :

أى منحرفون قال القشانى : « الصراط المستقيم الذى يدعوهم إليه هو طريق التوحيد المستلزم لحصول العدالة فى النفس ووجود المحبة فى القلب وشهود الوحدة والذين يحتجبون عن عالم النور بالظلمات وعن القدس بالرجس إنماهم منهمكون فى الظلم والبغضاء والعداوة والركون إلى الكثرة ، فلا جرم أنهم عن الصراط ناكبون منحرفون إلى ضده ، فهو فى واد وهم فى واد ! وقال الزمخشرى :

قد ألزمهم الحجة فى هذه الآيات وقطع معاذيرهم وعللهم بأن الذى أرسل إليهم رجل معروف أمره وحاله مخبور سره وعلنه خليق بأن يجتبى مثله للرسالة من بين ظهرانيهم وأنه لم يعرض له حتى يدعى بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل ، ولم يجعل ذلك مسلماً إلى النيل من دنياهم واستعطاء أموالهم ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام الذى هو الصراط المستقيم مع إبراز المكنون من أدوائهم وهو إخلالهم بالتدبر والتأمل واستهتارهم بدين الآباء الضلال من غير برهان ، وتعللهم بأنه مجنون بعد ظهور الحق وثبات التصديق من الله بالمعجزات والآيات النيرة وكراهتهم للحق وإعراضهم عما فيه حظهم من الذكر .

٣ – الإمام الخازن

هو الإمام الفقيه المفسر المحدث المؤرخ علاء الدين أبو الحسن على بن إبراهيم بن عمر بن خليل الشيحى البغدادى الشافعى الصوفى المعروف بالخازن .

ولد ببغداد سنة ثمان وسبعين وستمائة ونسب إلى « شيحه » بالقرب من حلب . .

ولقب بالخازن لقيامه بالإشراف على مكتبة إحدى المدارس الهامة بدمشق .

وأخذ فى السياحة منذ ان اشتد ساعده على طريقة العلماء الذين لا يكتفون بالقطر الذى يعيشون فيه ، والذين يسافرون دارسين متأملين متصلين بكبار العلماء .

لقد سافر إمامنا من بغداد إلى حلب ، ومكث فيها فترة طويلة من الزمن ، حتى لقد نسب إلى بلدة بالقرب منها . . ورحل إلى دمشق ، وكانت تذخر بطائفة كبيرة من العلماء أمثال القاسم بن المظفر ، بل إن دمشق إذ ذاك كان بها نساء وصلن فى العلم إلى درجة من الدرجات العظمى فجلسن للتفسير وللحديث ، ومنهن : وزيرة بنت عمر . .

ونهل الإمام الخازن من كل ينابيع العلم فى دمشق – شيوخاً وكتباً – وجاهد جهاداً مستميتاً فى سبيل التعريف بالعلم جمعاً وشرحاً وتأليفا فجمع تفسيراً كبيراً سماه : لباب التأويل فى معانى التنزيل . .

واهتم اهتماماً كبيراً بالحديث ، فصنف كتاباً يدل عنوانه على الهدف منه وهو : مقبول المنقول .

وقد حاول مصنفنا أن يجمع فى كتابه هذا المقبول من المنقول ، فشمر عن ساعد الجد ، وكتب عشر مجلدات جمع فيها بين مسند الإمام الشافعى ومسند الإمام أحمد ابن حنبل ، وكتب الصحاح الستة : البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجه ؛ وضم إلى كل ذلك موطأ الإمام مالك وسنن الدارقطنى ، فأصبحت عشرة كتب رتبها على الأبواب ، وهو عمل ليس بالسهل ولا باليسير ، ولابد فيه من الصبر العميق والجهد الكبير .

وفضلا عن كل ذلك فإنه جمع سيرة الرسول ﷺ فى صورة مطولة مستفيضة فى كتاب سماه : « سيرة خير الخلائق محمد المصطفى سيد أهل الصدق والوفا » . ولا عجب فى ذلك ؛ فإن من جمع كل هذه الكتب فى الأحاديث ورتبها ، يحيط بسيرة رسول الله ﷺ .

ويروى عن الإمام الخازن أنه كان حسن السمت ، معنيا بملابسه وبهيئته ،

متابعا لقوله تعالى : (خذوا زينتكم عند كل مسجد [١]) ولقوله : (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون [٢]) ، ومتابعا لقول الرسول ﷺ : « إن الله جميل يحب الجمال » . وكان دائم البشر ، وكل من كان حسن الثقة فى الله فإنه باستمرار دائم البشر . . وكان مبتسماً فى السراء والضراء ؛ لأنه يثق فى حكمة الله . . كان متفائلا فى العسر واليسر . ، وكان من خلقه التودد إلى الناس . وهذا التودد هو الذى جعله يفيد أكبر مجموعة من الناس علماً وهداية .

وكان من أجمل خلقه التواضع ، وهضم النفس ، وعدم الاعتداد بما وصل إليه من علم . .

لقد كانت حياته – فى سبيل الله علما وعملا . دراسة وتدريسا ، هداية وإرشاداً . .

وانتقل إلى رحمة الله فى آخر شهر رجب أو مستهل شعبان سنة إحدى وأربعين وسبعمائة بحلب .

رحمه الله رحمة واسعة .

تفسيره :

يعتبر تفسير الخازن من أقرب التفاسير المبسوطة تناولا ، وأسهلها فهما ، وأكثرها نفعا للعامة والخاصة .

وقد تحدث عن تفسيره فقال :

« لما كان كتاب الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوى ، من أجل المصنفات فى علم التفسير ، وأعلاها وأنبلها وأسناها ، جامعاً للصحيح من الأقاويل ، محلى بالأحاديث النبوية ، مطرزاً بالأحكام الشرعية ، موشى بالقصص الغريبة ، وأخبار الماضين العجيبة ، مرصعاً بأحسن الإشارات مخرجا بأوضح العبارات ، مفرغاً فى

---

(١) سورة الأعراف آية : ٣١ .

(٢) سورة الأعراف آية : ٣٢ .

قالب الجمال بأفصح مقال – أحببت أن أنتخب من غرر فوائده ، ودرر فرائده ، وزواهر نصوصه ، وجواهر فصوصه – مختصراً جامعاً لمعانى التفسير ، ولباب التأويل والتعبير ، حاوياً لخلاصة منقولة ، متضمنا لنكته وأصوله مع فوائد نقلتها ، وفرائد لخصتها ، من كتب التفاسير المصنفة فى سائر علومه المؤلفة ؛ لأنه أقرب إلى تحصيل المراد » .

ثم بين منهجه فيما يتعلق بالأحاديث النبوية فى تفسيره : لقد حذف منها الأسانيد ، واكتفى بالمتون ليسهل التناول ويتحقق الإيجاز . . ولما كان حذف الإسناد يحتاج إلى التيقن من درجة الحديث ومكانته – فقد ذكر من خرج الحديث من الأئمة وبين اسمه . وزيادة فى الاختصار اكتفى عن اسم المخرج بذكر حرف بدلا عنه ، فأشار إلى البخارى بحرف خاء ، وإلى مسلم بحرف ميم ، وإلى ما اتفقا عليه بحرف قاف ، وإلى أئمة الحديث الآخرين كأبى داود والترمذى بأسمائهم . .

وقدم لتفسيره بخمسة فصول :

الأول : فى فضل القرآن وتلاوته وتعليمه .

الثانى : فى وعيد من قال فى القرآن برأيه من غير علم ، ووعيد من أوتى القرآن فنسيه ولم يتعهده .

الثالث : فى جمع القرآن وترتيب نزوله ، وفى كونه نزل على سبعة أحرف .

الرابع : فى معنى نزول القرآن على سبعة أحرف ، وما قيل فى ذلك .

الخامس : فى معنى التفسير والتأويل .

وفرغ من تأليفه فى يوم الأربعاء العاشر من رمضان سنة خمس وعشرين وسبعمائة من الهجرة .

ومما يؤخذ عليه استطراده فى تفسيره بلا حدود ، والاستطراد قد يحسن فى بعض المواطن ، ولكنه فى غالبها مذموم . وقد جره ذلك إلى الإفراط فى النقل ، فنقل كثيراً من القصص الذى لا أصل له من الكتاب والسنة ، أوله أصل ، ولكن شوهته الزيادات والاستطرادات ، من المحرفين .

وانتخب تفسيره من تفسير البغوى ، وتفسير البغوى نموذج حى للتحرير

والتدقيق . . لقد جرد تفسير الثعلبي من الموضوعات والآراء البعيدة عن الصواب – يقول ابن تيمية :

وكان الثعلبي حاطب ليل ينقل ما وجد فى كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع ، والبغوى تفسيره مختصر من الثعلبي ، لكنه صان تفسيره من الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة . . لقد انطلق الخازن مع زياداته ، ولم يكتف بالأخذ عن البغوى ؛ وإنما أضاف إليه من غيره . . ويبدو أنه أرجع ما تركه البغوى فحشا به كتابه . .

ويظهر لنا هذا الاستطراد فى تفسيره لسورة الكهف مثلا ، حيث ذكر (قصة أصحاب الكهف) ، ونقل رواية محمد بن إسحاق ومحمد بن يسار ، ونقل رواية أخرى عن عبيد بن عمرو ، واستغرق هذا من التفسير ثمانى صفحات من القطع الكبير . . وكثير مما ذكره إن لم يكن كله – فيما يتصل بهذا الموضوع – لا أساس له من الصحة .

على أنه إذا كان ينقل هذه القصص فإنه يتحرى فى كثير من الأحايين فيما يتصل بعصمة الأنبياء من أحاديث وروايات . إنه يذكرها ثم يعقب عليها بالنقد والتفنيد . ففى مجال الحديث عن داوُد عليه السلام مثلا – ذكر القصص التى ليست بصحيحة بالنسبة إلى سيدنا داود عليه السلام ، ثم عقب عليها بفصل عنونه بقوله : (فصل فى تنزيه داود عليه السلام عما لا يليق به وينسب إليه) . ونقد فى هذا الفصل الروايات التى تمس عصمة داود عليه السلام .

والخازن يعقب – أحياناً – على ما يرويه من قصص مبيناً درجتها من الصحة والوضع . على أن هذا التفسير – مع ذلك – لم يخل من كثير من القصص التى تحتاج إلى تحرير . .

ومع النقد لابد من ذكر المحاسن :

لقد امتاز تفسير الخازن بالإشارة إلى مصادر الأخبار ، وبعض الاستطرادات فيه طريفة فمثلا فى تفسير قوله تعالى : (فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىَّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى

برحمتك فى عبادك الصالحين)[١] يستطرد إلى ذكر ضحك الأنبياء فيقول :

قيل : أكثر ضحك الأنبياء تبسم .

وقيل : معنى ضاحكا : متبسماً .

وقيل : كان أوله التبسم وآخره الضحك .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : ما رأيت النبى - ﷺ - مستجمعاً قط ضاحكا حتى أرى منه لهواته ، وإنما كان يتبسم .

نماذج منه :

قال تعالى : (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا . . وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا)[٢]

وبالحق أنزلناه وبالحق نزل : يعنى أنا ما أردنا بإنزال القرآن إلا تقريره للحق ، فلما أردنا هذا المعنى فكذلك وقع وحصل وقيل : معناه وما أنزلنا القرآن إلا بالحق المقتضى لإنزاله . . وما نزل إلا ملتبساً بالحق لاشتماله على الهداية إلى كل خير . وما أرسلناك إلا مبشراً : يعنى بالجنة للمطيعين .

ونذيرا : أى مخوفاً بالنار للعاصين .

قوله عز وجل : (وقرآنا فرقناه : أى فصلناه وبيناه . وقيل : فرقنا به بين الحق والباطل . . وقيل معناه : أنزلناه نجوما لم ينزل مرة واحدة بدليل قوله تعالى : (لتقرأه على الناس على مكث) أى على تؤدة ، وترسل فى ثلاث وعشرين سنة .

ونزلناه تنزيلا : أى على حسب الحوادث .

قال تعالى :

(الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً . . قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً . ماكثين فيه أبداً . وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً . ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت

---

(١) سورة النمل آية : ١٩ .

(٢) سورة الإسراء آيتا : ١٠٥ ، ١٠٦ .

كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً)[1].

قوله عز وجل : الحمد الله الذى أنزل على عبده الكتاب : أثنى الله سبحانه وتعالى على نفسه بإنعامه على خلقه ، وعلم عباده كيف يثنون عليه ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم وهى الإسلام . وما أنزل على عبده محمد ﷺ من الكتاب الذى هو سبب نجاتهم وفوزهم ، وخص رسوله – ﷺ – بالذكر ، لأن إنزال القرآن كان نعمة عليه على الخصوص وعلى سائر الناس على العموم .

ولم يجعل له عوجاً :

أى لم يجعل له شيئاً من العوج قط ، والعوج فى المعانى كالعوج فى الأعيان . والمراد نفى الاختلاف والتناقض عن معانيه ، وقيل : معناه : لم يجعله مخلوقاً .

روى عن ابن عباس فى قوله تعالى : (قرآنا عربياً غير ذى عوج) .

قال : غير مخلوق .

قيما : أى مستقيما ، وقال ابن عباس : عدلا . وقيل : قيماً على الكتب كلها مصدقا لها وناسخا لشرائعها .

لينذر بأسا شديدا : معناه لينذر الذين كفروا بأسا شديدا . وهو قوله سبحانه وتعالى : (بعذاب بئيس) الأعراف ١٦٥

من لدنه : أى من عنده . ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا : يعنى الجنة . . ماكثين فيه : أى مقيمين فيه أبداً . وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً . . مالهم به من علم أى بالولد باتخاذه : يعنى أن قولهم لم يصدر عن علم ، بل عن جهل مفرط فإن قلت : اتخاذ الله ولداً فى نفسه محال . . فكيف قيل : ما لهم به من علم ! قلت : انتفاء العلم قد يكون للجهل بالطريق الموصل إليه ، وقد يكون فى نفسه محالا لا يستقيم تعلق العلم به . .

ولا لآبائهم : أى ولا لأسلافهم من قبل .

كبرت : عظمت .

كلمة تخرج من أفواههم : أى هذا الذى يقولونه لا تحكم به عقولهم وفكرهم

---

(١) سورة الكهف الآيات : ١ – ٥ .

أليتة لكونه فى غاية الفساد والبطلان . . فكأنه يجرى على لسانهم على سبيل التقليد . .

إن يقولون إلا كذباً : أى ما يقولون إلا كذباً

٤ – الشيخ طنطاوى جوهرى

الشيخ طنطاوى جوهرى علم من أعلام المعرفة الإسلامية فى العصر الحديث .

ولد فى قرية كفر عوض الله حجازى بمديرية الشرقية سنة سبع وثمانين ومائتين وألف ، ونشأ نشأة عادية فى أسرته ، ثم تعلم مبادئ العلم فى كتاب بلدة (الغار) ، واشتهر بجودة الحفظ والذكاء المفرط والبديهة الحاضرة . . وساعده ذلك على الالتحاق بالجامع الأزهر ، وتلقى العلم على مشاهير علماء عصره . ثم استكمل دراساته فى دار العلوم ، وتخرج منها سنة عشر وثلثمائة وألف . وعين مدرساً بمدرسة دمنهور ، ثم بالمدارس الابتدائية ، ثم بدار العلوم ثم ، بالمعلمين الناصرية ، ثم بالخديوية وتعلم الإنجليزية وهو مدرس بها ، ثم اشتغل مدرسا بالجامعة المصرية .

وكان له نشاط دينى واجتماعى كبير ، فرأس جمعية المواساة الإسلامية ، واشتغل بالعلم والأدب والفلسفة والتفسير والتأليف ، وظهر فضله فى عصره وفيما بعد عصره إلى الآن .

ولقد تحدث عن نفسه فى مقدمة تفسيره فقال :

أما بعد فإنى خلقت مغرماً بالعجائب الكونية ، معجباً بالبدائع الطبيعية ، مشوقا إلى ما فى السماء من جمال ،وما فى الأرض من بهاء وكمال ، آيات بينات ، وغرائب باهرات . شمس تدور ، وبدر يسير ، ونجم يطير ، ووحش يسير ، وأنعام تسرى ، وحيوان يجرى ، مرجان ودر ، وموج يمر ، وضياء فى مخارق الأجواء وليل داج ، وسراج وهاج ، وكتاب من العجائب مسطور ، فى لوح الطبيعة منشور ، وسقف مرفوع . . إن ذلك لبهجة لأولى البصائر ، وتبصرة لصادق السرائر . .

وتحدث الشيخ عن طفولته فى تفسير سورة يوسف وكيف تأمل فى المجتمع من

حوله ؟ وقارن بين مجتمعه الريفى أو المصرى وبين المجتمع الغربى المتقدم ، وكيف نزعت نفسه إلى بحث العوامل التى تسببت فى ذلك ، والوصول إلى طريق الخلاص من هذا التأخر والانطلاق إلى عالم الحضارة والمدنية .

وكانت مؤلفاته أبلغ تعبير عما تجيش به نفسه ، وكانت توجيها حيًّا إلى الحضارة المادية والروحية على أساس من الدين ، وانطلاقا من مبادئه ، ومن مؤلفاته :

١ – الأرواح .
٢ – أصل العالم .
٣ – أين الإنسان .
٤ – التاج المرصع بجواهر القرآن .
٥ – جمال العالم .
٦ – الفرائد الجوهرية فى الطرق النحوية .

وأظهر مؤلفاته هو تفسيره الكبير الذى جمع خلاصة مؤلفاته إن لم يكن كلها ، فصار كما قيل : « كل الصيد فى جوف الفرا » .

ولم يقتصر نشاط الشيخ طنطاوى على العالم العربى ، لقد تعداه إلى مختلف الأقطار الإسلامية وترجمت كتبه إلى اللغة الهندية (الأوردية) ، وإلى لغة القازان بالبلاد الروسية ، وإلى لغة جاوة ، وغيرها ، وذاعت شهرته فى كثير من الآفاق .

ومن طريف ما يتعلق به : ما ذكرته مجلة دار العلوم ، عن أهل التركستان عندما استقلوا استقلالا تاما ، وأقاموا جمهورية إسلامية ، وأنشئوا المدارس والجامعات ، فاتفقوا على أن يسموها باسم الشيخ طنطاوى جوهرى وأصبحت : جامعة طنطاوية ، ومدارس جوهرية ، وألف زعماؤهم وعلماؤهم كتباً فى لغتهم للتدريس بهذه الجامعات باسم الشيخ ، مثل : كتاب العقائد الجوهرية ، ونحوه ؛ لأنه فى عقيدتهم حجة الشرق وفيلسوف الإسلام .

ولعل هذا يعطينا صورة صادقة عن الشيخ ونشاطه العلمى والدينى الذى اجتاز حدود المكان كما اجتاز حدود الزمان .

وقد عمر أكثر من سبعين عاماً ، ووافاه الأجل بعد حياة علمية خصبة ، فى سنة تسع وخمسين وثلثمائة وألف . .

رحمه الله رحمة واسعة . .

تفسيره :

سمى الشيخ طنطاوى جوهرى تفسيره : الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ، المشتمل على عجائب بدائع المكونات ، وغرائب الآيات الباهرات . .

وقد ابتدأه وهو مدرس بمدرسة دار العلوم فى نحو سنة ثمان وعشرين وثلثمائة وألف من الهجرة ، فكان يلقى تفسير بعض الآيات على طلبة دار العلوم ، وينشره بمجلة الملاجئ العباسية ، ثم استجمع همته لاستكمال التفسير ، فأتمه فى اليوم الحادى والعشرين من شهر المحرم سنة أربع وأربعين وثلثمائة وألف ، بعد أن استغرق تأليفه ما يناهز ست عشرةسنة .

وجاء تفسيرا حافلا كبير الحجم واسع الأفق ، استغرق خمسا وعشرين جزءًا يناهز كل جزء منها ما يقرب من ثلثمائة صحيفة من القطع الكبير بحروف صغيرة . وطبع هذا التفسير أكثر من مرة ، وبعد أن فرغ منه كتب ملحقاً له طبع فى جزء مستقل .

ويتحدث الشيخ طنطاوى فى مقدمة تفسيره عن الهدف الذى رمى إليه من هذا المجهود العلمى الفذ فيقول :

وإنى لعلى رجاء أن يؤيد الله هذه لأمة بهذا الدين ، وينسج على يد هذا التفسير المسلمون ، وليقرأن فى مشارق الأرض ومغاربها مقروناً بالقبول . . وليولعن بالعجائب السماوية والبدائع الأرضية الشبان الموحدون ، وليكونن داعيا حثيثا على درس العوالم العلوية والسفلية ، وليقومن من هذه الأمة من يفوق الفرنجة فى الزراعة والطب والمعادن والحساب والهندسة والفلك وغيرها من العلوم والمصناعات . . كيف لا ؟ وفى الفرقان من آيات العلوم ما يزيد على خمسين وسبعمائة ، بينما لا تزيد آيات الفقه الصريحة عن مائة وخمسين آية .

ولكن التفسير لم يقتصر على الناحية العلمية المادية وتبسيط أسلوبها وتقريبها قدر الطاقة . .

لقد وضع فيه – كما يقول – ما يحتاج إليه المسلم من الأحكام والأخلاق ثم عبر فى ثقة عن شعوره وهو يقول أيضاً :

ولتعلمن أيها الفطن أن هذا التفسير نفحة ربانية وإشارة قدسية وبشارة رمزية ، أمرت بهذا بطريق الإلهام ، وأيقنت أن له شأناً سيعرفه الخلق وسيكون من أهم أسباب رق المستضعفين فى الأرض : (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) [١] .

ولقد ألف شيخنا تفسيره فى فترة كان فيها الاستعمار ، وكان الجهل ، وكان الفقر ، ورأى الشيخ أن الجماهير المتدينة فى حاجة إلى الإصلاح ، وإلى تقبله بسرعة وعن اقتناع ، ورأى أن الدين هو الطريق الوحيد لذلك فسلك هذا الطريق . .

ورأى الشيخ تفرق المسلمين ، ورأى لهذا التفرق أسبابه ، ومن أهمها الجهل بالدين ، وبمدى صلته بالحياة ، وارتباطه بها . . .

ورأى الشيخ أن خير طريق لتوحيد المسلمين وتحقيق الإصلاح المنشود هو التوعية الدينية عن طريق العلم ، أو التوعية العلمية عن طريق الدين ، وسار فى هذا الطريق بإصرار عجيب وعزيمة غريبة .

وحركة إصلاحية علمية كالتى قام بها الشيخ طنطاوى فى تفسيره لا تخلو من الأخطاء . ولقد تعرض الشيخ فى تفسيره للنقد بحق وبغير حق ، واضطر فى كثير من المواطن إلى الرد الثائر والتنديد بمن ينتقدونه ، ويرون أن منهجه فى التفسير ليس هو المنهج الملائم .

ومما لا شك فيه أن نية الشيخ فى التفسير إنما هى نية الرجل المحب لوطنه (ووطنه هو العالم الإسلامى كله) والذى يرى أن هذا الوطن فى حاجة إلى التعرف على العلوم الكونية والعلوم التربوية وآراء الغربيين فى كثير من هذه النواحى ، فاستفاض فيها استفاضة خرجت به عن الأسلوب الذى تعوده الناس فى التفسير ؛ حتى لقد وصفه

(١) سورة الحج آية : ٤٠ .

بعض بأنه كتاب طبيعة وكيمياء وفلك وتربية أكثر مما هو كتاب تفسير . ومن أجل ذلك منعت بعض الدول دخوله فى بلادها ونقده كثير من العلماء .

وما من شك فى أن المؤلف قد استطرد استطرادات كثيرة فى مواضع متعددة لا تمت بصلة إلى التفسير ، كما استخرج كثيرا من علوم القرآن بحساب الجمل ، وهى طريقة غير معتادة فى التفسير ، وأكثر من الحديث عن نفسه فيه جذباً للقراء ورداً على الأعداء ، وتلك طريقة غير متعودة فى الكتابة . .

ومع ذلك فإن كتابه فيه التفسير التقليدى اللطيف : إنه يقسم السورة أقساماً ، ثم يذكر الآيات التى يشملها القسم المعين ، ويفسرها تفسيراً تقليديا مختصراً لطيفاً يدل على تمكن ومعرفة بفنون التفسير ، وينطلق بعد ذلك فى بحوثه المشعبة فى شتى المجالات . ولو اقتطع هذا التفسير التقليدى من مؤلفه لجاء تفسيراً لطيفاً حافلا يأخذ مكانة عالية بين التفاسير .

كان الشيخ فى تفسيره عالماً دينياً إلى جانب شغفه بالعلوم الكونية وأفاد فى الأولى ؛ كما أفاد فى الأخرى .

نماذج منه .

ولكى نقدم نماذج من هذا التفسير سننتقى بعض الآيات الكونية . وبعض الآيات الاجتماعية والأخلاقية لتتكشف لنا معالم هذا التفسير

(١) قال تعالى :

(إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) [١] .

يقول الشيخ فى تفسيرها : لقد شرحنا هذه الآية فى كتاب (التاج المرصع) وأبنا كيف أبانت نظام العالم العلوى والسفلى وارتباطها وتعاشقها ؟ وكيف بدأ بالفلك

(١) سورة البقرة : آية : ١٦٤ .

وثنى بعلم الطبيعة ، وجعلها منظمة كإنسان واحد وحيوان واحد ونبات واحد ، فترى كل كائن مستمداً من سواه .

ثم تحدث عن اختلاف الليل والنهار تبعاً لحركة الشمس ، واختلاف الحرارة والبرودة والرياح ، فتتساقط الأمطار من السماء تبعاً لنواميس الحرارة والبرودة المسخرين لناموس الأفلاك ، وسير الشمس فى البروج ، فتنشأ ممالك النبات والحيوان والإنسان من ذلك الماء ، وتهب الرياح فتسير السفن كما تسير السحب ، ولكل قوانين فى سيره : فالسفن لا تتجاوز ما رسم الملاحون فى رسومهم من الخطوط البحرية ، والسحب لا تتعدى طريقها المرسوم بالقوانين الطبيعية رحمة بالناس .

وهذا جميعه مرتبط بالعلويات . . وكيف تسير السفن إلا بالقوانين البحرية المستخرجة من علم الأفلاك ، ومراقبة الأطوال والعروض والنجوم وسير الشمس وقانون المغناطيسية ونحو ذلك ؟

ثم صور ارتباط هذه القوانين بجدول ، وقال : إن ذلك يفيد تناسق العالم كرة واحدة وشكلا واحداً يستمد الأسفل من الأعلى ، ويمد الأعلى الأسفل ، وبين أن هذا التناسق والانسجام فى عالمنا يدل على أن نهج العالم الأخروى على هذا النمط .

ثم عقد مقارنة بين دوران الرياح وحركات المياه ودوران الشموس والكواكب وبين دوران الدم فى أجسامنا ، واستخلص نتيجة هامة وهى : أن العالم كإنسان واحد وحيوان واحد له رأس وأعضاء رئيسية ومرءوسة (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) [١] . وكما أن للجسم مدبراً واحداً فإن للعالم بارتباط أجزائه واستمداد بعضها من بعض مدبراً واحداً دل عليه قوله تعالى : (وإلهكم إله واحد) [٢] .

واستفاض بعد ذلك فى إسهاب يتحدث عن اختلاف الليل والنهار ودرجات التفاوت بينهما ، وعقد جدولا لذلك وقام بشرحه ، وضرب أمثلة عليه زيادة فى التوضيح . . .

وانتقل من العلم إلى السياسة والدراسات الاجتماعية : فتحدث عن أنه كما يختلف الليل والنهار بالزيادة والنقصان تختلف الدول بالرفعة والعفة . . .

---

(١) سورة لقمان آية : ٢٨ .

(٢) سورة البقرة آية : ١٦٣ .

وتحدث عن كتاب خطى يبين أن التقاليد المصرية فى الكشف الحديث قديمة يرجع تاريخها إلى ما قبل ثلاثين قرنا فأكثر ، وتحدث عن السفن وأنواعها وعن السمك وأصنافه ، وقارن بينهما ، وتحدث عن كثير من مسائل الكيمياء العضوية فى النبات ، وقارن بين نباتات وحيوانات مختلفة ، وعن المادة وبساطة أصلها وتعقدها وتعدد ألوانها ، وعن أصل المادة واختلاف العلماء فى ذلك . ثم ذكر أصنافاً متعددة من النباتات والحيوانات موضحا لها بالرسوم مشيراً إلى عجائب مثيرة فى نماذج معينة من كلا النوعين ، وتحدث عن السحاب والزوابع والسفن البخارية والقوى الكهربية المتولدة عن الطاقة الميكانيكية التى تحرك الآلات بسرعة ، وقد تتسبب عن اندفاع الماء كما فى سد أسوان . . .

واستغرقت هذه الرحلة المدهشة عشرين صفحة كاملة .

وقد قدم بين يدى رحلته تفسيراً لفظيا مبسطاً فيه كثير من الوضوح .

(ب) سورة يوسف :

قسم السورة إلى ستة أقسام :

١ – الرؤيا .

٢ – إيذاء إخوة يوسف له .

٣ – قصته فى بيت العزيز .

٤ – سجن يوسف عليه السلام .

٥ – تنظيمه لخزائن مصر .

٦ – خاتمة السورة وحكمها وعجائبها . وفى هذه الخاتمة ذكر الآيات من قوله تعالى (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدًا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم) [1] إلى آخر السورة . .

(١) سورة يوسف آية : ١٠٠ . .

التفسير اللفظى :

ورفع أبويه على العرش : السرير الذى كان يجلس عليه يوسف . والرفع النقل إلى أعلى .

وخروا له سجّدا : أى يعقوب وأمه وإخوته ، وقيل خالته لموت أمه ، وكانت تحية القوم إذ ذاك السجود وهو الانحناء والتواضع .

وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل : التى رأيتها فى أيام الصبا . قد جعلها ربى حقًّا : صدقاً .

وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن : وأعرض عن ذكر الجب لئلا يكون تثريباً عليهم .

وجاء بكم من البدو : من البادية ، لأنهم كانوا أصحاب مواش ينتقلون بها إلى المياه والمناجع .

من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى : أى أفسد بيننا وأغرى . يقال : نزغ الرائض الدابة إذا نخسها وحملها على الجرى .

إن ربى لطيف لما يشاء : لطيف التدبير ، فلا صعب إلا وله فيه تدبير ينفذ فيه مشيئته .

إنه هو العليم : بوجوه المصالح والتدبير .

الحكيم : الذى يفعل كل شىء فى وقته . . يقال :

إن يوسف طاف بأبيه فى خزائنه ، فلما أدخله خزانة القراطيس [١] قال : يا بنى ما أعقلك ! عندك هذه القراطيس وما كتبت إلى ! قال : أمرنى جبريل ، قال : أو ما تسأله ؟ قال : أنت أبسط منى إليه فاسأله . فقال جبريل : الله أمرنى بذلك لقولك (وأخاف أن يأكله الذئب) ، قال [٢] : فهلا خفتنى !

---

(١) الورق .

(٢) أى الله تعالى .

البحوث حول الآيات :

أما ما استفاض فيه المفسر من البحوث حول القسم الأخير من السورة فهى : تتناول رؤيا يوسف ، ورؤيا الملك . . ثم هو يذكر حاله فى طفولته ونزوعه إلى تغيير حاله المجتمع فى عصره ، ويشير الى ما ذكره عن ذلك فى كتابه (التاج المرصع) ، ثم يذكر أنه أوضح فى كتابه (أين الإنسان ؟) كيف يكون العالم أسرة واحدة ؟ ثم ينقل من كتابه (المذكرات فى أدبيات اللغة العربية) قطعة فى البلاغة والاعتبار بالقصص عند العرب ، ويوازن ذلك بقوله تعالى : (قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل)[1] . . .

ثم تحدث عن العالم العلوى والسفلى ، وعن الدنيا والآخرة ، وعن الجسم والروح . . وأتبع ذلك الحديث عن مقاصد الدعاء والثناء فى دين الإسلام ، وعن بعث جميع أنواع العبادات للهمم إلى العلوم الكونية والمادية وأنها طريق الدنيا والآخرة . .

ثم تحدث باستفاضة عن كوكب الشمس ، وشكا تأخر المسلمين ، وعدم كشفهم لألوان العلوم التى يشير إليها القرآن .

وتحدث عن اللطف الإلهى فى أسلوب عذب نفيس ، وكيف جمعت قصة يوسف سياسة النفس ، وسياسة المنزل ، وسياسة المدينة . . ؟

ثم بين كيف كشف الله تعالى لنبيه ﷺ خفايا الغيب فى هذه السورة ، وتحدث عن علم الذرة وكيف تتفتت ، وعن فكرة اكتشافها ومظاهر التقدم فى دراستها ، وغير ذلك !

وختم الحديث عن هذه اللطائف – كما يسميها – بالحديث عن تقصير المسلمين فى شأن هذه السورة ، وقال : جاء فى أول السورة (تلك آيات الكتاب) وفى آخرها (آيات الأرض والسماء) وقد ذم الله المعرضين عن الآيتين . فإذا حللنا الآيات فى سورة يوسف وعرفنا معانيها ، وحللنا ألفاظها واستفدنا فوائدها –

(١) سورة يوسف آية : ٦٤ .

فبالأحرى نحلل آيات الأرض والسماء ، ونستجلى فوائدها ، ونستخرج حكمها .

وهكذا نفذ بفكره ومنهجه فى شتى ألوان العلوم ، واستغرق ذلك ست عشرة صحيفة من القطع الكبير وبالخط الصغير .

وأظن أن السامع أخذ الآن فكرة عن المنهج الذى اتبعه الشيخ ، وهو منهج يطوى فى التفسير كل ما أمكن للشيخ معرفته فى جميع مجالات العلم .

ونقده من أجل ذلك كثير من الناس ومدحه من أجل ذلك كثير من الناس .

والذى لا شك فيه هو أن الشيخ بذل كل ما يستطيع فى تفسير القرآن بنية صادقة وعزيمة أحبت أن ترضى الله ورسوله ، فجزاه الله خير الجزاء ، وأجزل مثوبته ، وتقبل عمله .

٥ – الجلالان

عالمان جليلان هما : الإمام جلال الدين المحلى ، والإمام جلال الدين السيوطى .

١ – أما الجلال المحلى فهو الإمام محمد بن أحمد بن محمد المحلى الشافعى ، المولود بمصر سنة واحد وتسعين وسبعمائة .

كان مثالا للعالم الجليل حقًّا ، وسار فى حياته على نمط أسلافنا من قمم العلماء الذين كانت لهم مثل فيما يتعلق بالعلم وفيما يتعلق بالحياة . لقد جعلوا العلم أساساً فى حياتهم ، وهذا الأساس لم يتخذوه أساسا منهاراً : أى أنهم لم يتخذوه مادة جدل نظرية ؛ وإنما أقاموا حياتهم العملية على العلم فكانوا علماء عاملين .

ولم يتخذ أسلافنا العلم تجارة وتكسبا وحرفة يتقربون به إلى الملوك والأمراء وينالون به الزلفى والمناصب ، وإنما حفظوه من أن يتبذل ، وذلك أنهم اكتسبوا حياتهم المادية ، واتجهوا فى علمهم إلى الله سبحانه وتعالى فلم يأخذوا عليه أجرا من أجل ذلك كانت لهم حرية لايقيدها الدينار والدرهم .

لقد كان إمامنا المحلى من هذا الصنف من الناس . لم يكتف بالعلم ؛ بل صاحبه

بالعمل ، ولم يمنعه الاشتغال بالتعليم عن التكسب بالتجارة ، فاستغنى عن الحكام والموسرين ، واكتفى بعيشة التقشف ، وأخلص للعلم حق الإخلاص .

عرض عليه القضاء الأكبر ، فتعفف عنه ، وكان كثير من أسلافنا يرفضون القضاء تورعا وتنزها عن أن يحكموا حكما لا يرضى الله سبحانه وتعالى .

وأتى إليه الكبراء ، فعاملهم معاملة عادية ، وأعرض عن مداهنتهم أو التزلف لهم ، بل واجههم بمظالمهم ، ووقف فى وجوههم ، ووفى لرسالة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حقها .

اشتغل بالفقه والكلام والأصول والنحو والمنطق وغيرها من العلوم الإسلامية وامتاز بفهم عجيب صادق .

ومن طريف ما يصفه به السابقون أنهم كانوا يقولون : إن ذهنه يخرق الماس . يعنون بذلك أن ذهنه حاد نفاذ حتى إنه لو توجه إلى ماس لخرقه ! وأنه ينفذ إلى دقائق المسائل ، فيصل إلى حل ما تعقد منها .

وكان يعتمد على الفهم ، ولم يك يستطيع الحفظ .

وكان يقول عن نفسه : (إن فهمه لا يقبل الخطأ) .

ولقد صاحبه التوفيق فى مؤلفاته ، فامتازت بالاختصار والتحرير والتنقيح وانتقاء العبارة وجودة العرض حتى جذبت الناس إليها ودفعتهم إلى الإقبال عليها .

ومن هذه المؤلفات :

كتاب شرح جمع الجوامع فى أصول الفقه .

وكتاب شرح المنهاج فى فقه الشافعية .

وكتاب شرح الورقات فى أصول الفقه .

وتوفى رحمه الله وهو يؤلف تفسيره للقرآن الكريم ، هذا التفسير الذى قام بإكماله تلميذه البارز الجلال السيوطى .

٢ – والجلال السيوطى يعتبر من أبرز رجال عصره من العلماء ، وهو الإمام أبو الفضل جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد بن سابق السيوطى نسبة إلى أسيوط .

وأسرته أسرة كريمة ذات علم وفضل . توفى والده وهو فى السادسة من عمره ، فنشأ يتيما ، ولكن معالم النجابة ظهرت عليه من صغره ، فحفظ القرآن وتوجه إلى تحصيل العلم من علماء عصره ، وذكر من شيوخه خمسون شيخاً من أعلام العلماء . . .

وقد انتفع انتفاعاً لا حد له بالمكتبة المحمودية ، وكانت عامرة بالكتب النفيسة . وابتدأ التأليف وسنه لا تتجاوز سبع عشرة سنة ، وأفتى فى سن الثانية والعشرين ، وأملى الحديث فى سن الثالثة والعشرين .

وعلى سنة العلماء الممتازين رحل إلى كثير الأقطار منها : الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب ، فضلا عن الطواف بشتى أنحاء القطر المصرى . وشرب ماء زمزم قاصداً أن يصل فى العلم إلى مراتب شيوخه المتخصصين البارزين كل فى فنه متابعاً لقول الرسول ﷺ (ماء زمزم لما شرب له) .

وكان السيوطى جامعاً لكثير من العلوم والمعارف الدينية واللغوية كالتفسير والحديث والفقه والنحو والبلاغة ، ووصل فيها إلى مرتبة أهلته للتأليف بكثرة وغزارة ، يقول عن نفسه : (ولو شئت أن أكتب فى كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوضها وأجوبتها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل الله لا بحولى وقوتى) .

وقد بدأ السيوطى الكتابة ملخصاً ومختصراً ، ثم انتهى أمره إلى الاستقلال فى التأليف . إلا أن المنهج النقلى يغلب عليه ؛ لأنه فى نظره جانب مأمون .

وحياته تمثل حياة العالم فى صورتها السامية ؛ لقد تفرغ للعلم وعكف عليه ، ولم يشغله عنه شاغل . كان العلم شعاره فى الصباح وفى المساء ، وكان شعاره فى النوم واليقظة ، ومن أجل ذلك كانت حياته خصبة أثمرت ما يقرب من الخمسمائة مؤلفاً ، منها : ما هو صغير لا يزيد على صفحة أو صفحات ، ومنها مايسع عدة مجلدات .

ومن أبرز كتبه :

١ – تفسيره الكبير المسمى (الدر المنثور فى التفسير بالمأثور) .

٢ – كتاب (جمع الجوامع) أو (الجامع الكبير) الذى حوى ما حصله من الحديث ، وهو مرتب على حروف المعجم ؛ مما يسر تناوله والتعرف على ما فيه . وهو يعد عملا تنوء به العصبة أولو القوة ، وقد يسره الله تعالى له لذاكرته القوية ولتنظيمه الدقيق ولاستعانته ببعض تلاميذه ، فيما يبدو فى الجمع والترتيب .

٣ – كتاب (صون المنطق والكلام) وهو من أنفس كتبه وقد حققه أخيراً الدكتور على سامى النشار والسيدة سعاد على عبد الرازق .

ومن كتبه المشهورة أيضاً :

كتاب (اللآلئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة) .

وكتاب (الإتقان فى علوم القرآن) .

وكتاب (تدريب الراوى فى علوم الحديث) .

وبرهن على سعة اطلاعه ورحابة أفقه فى فتاواه الكثيرة التى جمع نموذجاً طيباً منها فى جزأين كبيرين بعنوان (الحاوى) .

ويؤخذ على السيوطى إفراطه فى النقل ، وكثرة استطراداته فى مؤلفاته ، وافتقار هذه المؤلفات إلى التهذيب والتنقيح .

بيد أن إفراطه فى النقل يسر لنا معرفة الكثير من الكتب التى كادت تندثر لولا أنه حفظ لنا أجزاء ضخمة منها بين ثنايا كتبه ، ولولا ذلك لما علمنا عنها شيئاً .

وكان يميل إلى الزهد والتصوف ، وله فيهما مؤلفات وفتاوى كثيرة ودقيقة .

وقد توفى فى ليلة يوم الجمعة التاسع عشر من شهر جمادى الأولى سنة إحدى عشرة وتسعمائة ، وصلى عليه الإمام الشعرانى ، ودفن بالقاهرة .

رحمه الله رحمة واسعة .

تفسيرهما :

اشترك فيه الشيخان ، وقامت الأقدار بدورها فى هذا الاشتراك : فقد أخذ الجلال المحلى يعد تفسيراً له ، مبتدئاً من أول سورة الكهف حتى انتهى من سورة الناس ، ثم بدأ فى النصف الأول ، ففسر سورة الفاتحة إلا أن الأجل وافاه بعد

تمامها ، وصار التفسير محتاجاً إلى من يكمله . فقام الشيخ السيوطى بذلك .

ولم يتحدث المحلى عن عمله فى تفسيره أو عن منهجه فيه ؛ وإنما تحدث السيوطى ، فأشار فى مقدمة تفسيره إلى أنه سيقوم فيه بذكر ما يفهم به كلام الله تعالى مع الاعتماد على أرجح الأقوال ، وإعراب ما يحتاج إليه ، والتنبيه على القراءات المختلفة المشهورة على وجه لطيف وتعبير وجيز . وترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية .

وأوضح الإمام السيوطى فى هذه الكلمات الحاجة إلى النوع الوجيز من التفسير ، وافتقار العالم الإسلامى إليه ، حيث إن جمهور الناس وعامتهم لا يتجهون عادة إلى البسط العلمى المتشعب فى تفسير القرآن ، وقد لا يستفيد الكثيرون من هذا البسط ، وقد يتوهون بين رحاب التفاسير الكبيرة التى لا يحتاج إليها إلا المتخصصون .

وبرغم الاختصار المركز ، وسهولة التناول فإنه اشتمل على كثير من الفنون المتصلة بمجال القرآن الكريم : من الروايات المأثورة ، والإعراب ، والقراءات ، والأقوال الصحيحة المعبرة فى ثقة عن الموضوع .

ولم يستغرق تفسير الجزء الذى أعده السيوطى – وهو النصف الأول وقتاً كثيراً . . . لقد أتمه فى أربعين يوما . وتحدث فى ختامه عما بذله شيخه الجلال المحلى من مجهود .

وقد اشتهر تفسير الجلالين وذاع صيته وظهرت – بحق – حاجة العالم الإسلامى إلى مثله من التفاسير . وطبع عدة طبعات مستقلا تارة وعلى هامش أحد الكتب تارة أخرى . وقام بعض العلماء بكتابة حواش عليه ، ففصلوا فيها مجمله ، ووضحوا فيها ما منع التركيز من توضيحه ، وقاموا باستدراك ما فات مفسريه . ومن أشهر هذه الحواشى حاشيه الإمام الصاوى ، وفيها لمحات نورانية كريمة ، وحاشية الإمام الجمل وفيها إيضاحات لغوية قيمة . وقد طبعت كل من الحاشيتين وعلى هامشها تفسير الجلالين . ولعل صغر حجمه وسهولة استعماله وكثرة فائدته وشدة إقبال الناس عليه يسرت تكرار طبعه .

والذى يؤخذ على هذا التفسير أنه برغم اختصاره الشديد لم يخل من بعض القصص الذى لا أساس له من النصوص الصحيحة ، نلحظ ذلك فى تفسير قوله تعالى من سورة ص (وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ، إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط . إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب . قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب . فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) [١].

لقد ذكر أنهما ملكان جاءا فى صورة خصمين لتنبيهه على ما وقع منه ، وكان له تسع وتسعون امرأة ، وطلب امرأة شخص ليس له غيرها ، وتزوجها ودخل بها .

وهذا التفسير للآيات الكريمة تفسير خاطئ لا أساس له من الصحة ولا يساير عصمة الأنبياء .

وكذلك فى تفسير قوله تعالى – فى سورة يوسف – (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه).[٢] يقول (همت به) قصدت منه الجماع (وهم بها) قصد ذلك . (لولا أن رأى برهان ربه) قال ابن عباس : مثل له يعقوب فضرب صدره فخرجت شهوته من أنامله وجواب لولا . . لجامعها . .

وهو تفسير خاطئ يجرد سيدنا يوسف عليه السلام من أى مقاومة تجاه امرأة تعرض نفسها عليه . والتفسير الذى يناسب الأساس اليقينى وعصمة الأنبياء هو ما قال به المفسر الجليل أبو السعود : المراد هم بدفعها عن نفسه ، ومنعها عن ذلك القبيح . .

---

(١) سورة ص الآيات ٢١ – ٢٥ .

(٢) سورة يوسف آية : ٢٤ .

نماذج منه :

قال تعالى :

(فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون [١])

(فلولا) فهلا (كان من القرون) الأمم الماضية .

(من قبلكم أولو بقية) أصحاب دين وفضل (ينهون عن الفساد فى الأرض) المراد به النفى أى ما كان فيهم ذلك (إلا) لكن (قليلا ممن أنجينا منهم) نهوا فنجوا . ومن للبيان .

(واتبع الذين ظلموا) بالفساد وترك النهى (ما أترفوا) نعموا (فيه وكانوا مجرمين . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم) منه لها (وأهلها مصلحون) مؤمنون .

قال تعالى :

(الر . تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون . نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين [٢]) .

الر : الله أعلم بمراده بذلك .

تلك : هذه الآيات .

آيات الكتاب : القرآن ، والإضافة بمعنى من .

المبين : المظهر للحق من الباطل .

إنا أنزلناه قرآنا عربيا : بلغة العرب .

لعلكم : يأهل مكة .

---

(١) سورة هود آيتا : ١١٦ ، ١١٧ .

(٢) سورة يوسف : الآيات : ١ - ٣ .

تعقلون : تفهمون معانيه .

نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا : بإيحائنا إليك هذا القرآن وإن : مخففة . أى وإنه .

كنت من قبله لمن الغافلين . .

الفصل الخامس

(اقرأ باسم ربك الذى خلق)

المنهج القرآنى لحياة المسلم

عن عائشة أم المؤمنين – فيما رواه البخارى وغيره – أنها قالت :

أول مابدئ به رسول الله ﷺ من الوحى :

الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه (يتعبد) الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها . حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك ، فقال ، اقرأ ؛ قال : ماأنا بقارئ ، قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى . فقال : اقرأ ؛ قلت : ما أنا بقارئ ؛ فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ؛ فقلت : ما أنا بقارئ ؛ فأخذنى وغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال: (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم)[1] .

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ، فقال : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة ، وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى ! فقالت خديجة : كلا والله مايخزيك الله أبداً : إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدوم ، وتَقرِى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرأ تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى فقالت له خديجة : يابن عم اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر مارأى فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل الله على

(١) سورة العلق الآيات : ١ – ٥ .

موسى ، ياليتنى فيها جذع ليتنى أكون حيًّا إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ : أو مخرجيّ هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً موزراً .

هذه الليلة المباركة هى التى سماها الله ليلة القدر ، فقال سبحانه وتعالى : (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) القدر /١ .

ثم أخذ الله سبحانه وتعالى يبين فضلها فقال :

(وما أدراك ماليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هى حتى مطلع الفجر) القدر/٢ – ٥ .

ووصفها الله بأنها مباركة ، فقال سبحانه وتعالى (حم ، والكتاب المبين ، إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم ، أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين ، رحمة من ربك إنه هو السميع العليم ، رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ، لا إله إلا هو يحيى ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين)[1] .

عن هذه الليلة المباركة نأخذ فى الحديث مبتدئين بأسمى أحداثها ، وأسمى هذه الأحداث هو الوحى الذى يتمثل فى قوله تعالى : (اقرأ باسم ربك الذى خلق) .

وهذه المادة الأولى من الدستور الإسلامى غنية بالمعانى ، ثرية بالتوجيهات ومعانيها وتوجيهاتها ليست آتية من ألفاظها فحسب ، وإنما هى آتية أيضاً من الجو العام الذى تشير إليه أو الذى توحى به ، فهى تبتدئ أولاً بكلمة : اقرأ .

إنها تأمر بالقراءة التى هى من أهم وسائل العلم والمعرفة إن لم تكن أهمها ، ويتسم الإسلام لأول لحظة زمنية من حياته ولأول كلمة فيه بسمة العلم ، وتتوالى بعد ذلك الآيات موضحة ومؤكدة هذه السمة جاعلة منها طابعاً وشعاراً .

وإذا كانت الآيات الأولى التى نزلت من القرآن فى الليلة المباركة قد أمرت بالقراءة مرتين ، وذكرت مادة العلم ثلاث مرات ، وذكرت القلم – فإن الآيات التى نزلت بعد ذلك بدأت بحرف من حروف الهجاء : « ن » ، وتضمنت أول قسم أقسم

(١) سورة الدخان الآيات : ١ –٨ .

به الله سبحانه فى القرآن ، وكان هذا القسم بالقلم : (ن ، والقلم وما يسطرون) القلم/١ .

ثم تتوالى الآيات القرآنية فى فضل العلم ، وفى الحث على التعلم وفى تمجيد العلماء .

لقد أمر رسول الله ﷺ أن يلجأ إلى الله متضرعاً داعياً أن يزيده الله علماً : (وقل رب زدنى علماً) طه/ ١١٤ .

وهذا الدعاء الذى يتجه به الرسول ﷺ إلى الله إنما هو من أروع الأمثلة فى التربية ، وذلك أنه صادر من الإنسان الكامل ، أنه صادر من رسول الله – أكمل الرسل – يبين للأمة أن الإنسان مهما بلغت به المنزلة ينقصه الازدياد من العلم ، وإذا كان الرسول – أكمل المخلوقات – يرجو أن يزيده الله علماً فما بالك بأفراد الأمة ، وتصور زعيم أمة تكبره وتجله وتقدسه يعلن فى صراحة لا لبس فيها أنه مازال – ولن يزال – بحاجة إلى الزيادة فى العلم : أنه يدفع الأمة بذلك – الأمة التى تقدسه – إلى السير على منواله ، فترجو أن يزيدها الله علماً .

أما عن هؤلاء الذين سموا بأنفسهم عن مستوى العامة فتثقفوا وتعلموا فإن الله سبحانه وتعالى يقول عنهم مشجعاً وحاثًّا : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) ، المجادلة/١١ .

وإن أسمى شىء فى الحياة من غير شك إنما هو الإيمان ، إنه فى الدرجة المطلقة من السمو . ويأتى مع الإيمان ، تالياً للإيمان مباشرة : العلم .

والعلم فى النظرة الإسلامية من وسائل تثبيت الإيمان ، وزيادته وتقويته ، ذلك أن العلماء فى الأعراف الإسلامية هم أشد الناس خشية لله سبحانه ، يقول تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) . فاطر/ ٢٨ .

ولا يصل ذروة الإيمان – الذروة المطلقة – من بنى آدم إلا العلماء : إن الله سبحانه وتعالى يقرنهم به وبملائكته فى شهادة التوحيد ، وشهادة التوحيد فى ذروة سنام الإيمان . إن : **أشهد أن لا إله إلا الله – هى قمة الإيمان . وهذه القمة لايرقى**

إليها إلا العلماء . يقول سبحانه : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم) . آل عمران / ١٨ .

هذه هى النظرة القرآنية للعلم الذى اتسم به الإسلام منذ « اقرأ » .

وقد يظن بعض الناس أن العلم الذى عناه القرآن إنما هو العلم بالدين فحسب ، وليس الأمر كذلك فإن الله سبحانه وتعالى حينما ذكر أن العلماء هم الذين يخشون الله أحاط الآية القرآنية بجو يمنع أن تحدد العلم بالعلم الدينى فقط . يقول سبحانه : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور) . فاطر : ٢٧ – ٢٨ .

ثم إن الله سبحانه وتعالى قد امتن علينا بأن سخر لنا البحار والأنهار والجبال وسخر لنا الشمس والقمر والكواكب ، لقد سخر لنا الأرض والسماء وما بين الأرض والسماء : أى أنه سخر لنا الكون كله . وهذا الامتنان من الله سبحانه وتعالى علينا بالتسخير إنما هو من أجل أن نصل إلى السيطرة عليها باكتشاف القوانين التى وضعها الله سبحانه وتعالى لتسخيرها. يقول سبحانه : (الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار) ٣٢ – ٣٣ إبراهيم .

وقال تعالى : (ألم تروا أن الله سخر لكم مافى السموات ومافى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير) ٢٠ لقمان .

وقال تعالى : (ألم تر أن الله سخر لكم مافى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم) الحج ٦٥ .

وقال تعالى : (الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) . ١٢ – ١٣ الجاثية .

إن الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان للخلافة الأرضية ، ومنحه العقل يكتشف به مايهيئ له هذه الخلافة فى العالم المادى ، العالم المحسوس . ولقد سير هذا العالم المادى بنواميس محكمة مطردة ، وعلى الإنسان أن يكتشف هذه النواميس ؛ ليطوع الكون له ، وعليه أن يكتشف هذه النواميس كمظاهر لعظمة الله وجلاله فتكون من أسباب خشيته سبحانه .

إن عالم التشريح يرى الدقة فى الصنع والإحكام فى التكوين ، ويرى هذا الإبداع البديع فى التركيب الإنسانى والحيوانى والنباتى ، فيخر ساجداً لمبدع العالم الذى أحسن كل شىء صنعاً . وإن عالم الفلك يشاهد بمرصده ويتصور بذهنه هذه السعة الشاسعة المذهلة فى تصورها ، ويعلم أن كل صغير وكبير فيها يسير فى تقدير دقيق : (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون)[1] ، يرى ذلك فيخر ساجداً للمبدع ، ويردد مع القرآن الكريم ، (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ، الذى خلق سبع سموات طباقاً ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير)[2] .

أرأيت إلى غزو الفضاء والوصول إلى الكواكب ، واكتشاف نواميس الكون فى أعماق البحار وعلى فنن الجبال ، وفى مجالات الجو . . إن كل ذلك فى الأعراف الإسلامية الصادقة واجب على المسلمين . وإنه لمن سوء القصد أن يشيع مشيع أن الإسلام يعارض غزو الفضاء والوصول إلى الكواكب . إن الإسلام على العكس يوجب كل ذلك على الأمة الإسلامية التى يحب الله ورسوله أن تكون أقوى أمة فى العالم حتى تؤدى رسالة الله التى كُلفت أداءها .

ونعود فنقول : لقد اتسم الإسلام بالعلم منذ « اقرأ » .

وإذا كان القرآن قد وجه الأمة الإسلامية إلى العلم فإن الرسول ﷺ – وهو

---

(١) سورة يس آية : ٤٠ .

(٢) سورة الملك الآيات : ١ – ٤ .

صورة قرآنية كاملة – قد حث المسلمين على العلم فى أساليب شتى . يقول صلوات الله وسلامه عليه : « من سلك طريقاً يبتغى فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » (رواه أبو داود والترمذى) .

إن الاتجاه العلمى فى الإسلام بدأ فى صورة صريحة بـ « اقرأ » ، ولكن « اقرأ » فى الإسلام مشروطة بشرط يوجبه الإسلام ويحتمه ، إنها ليست مطلقة ، وإنما هى مقيدة بأن تكون : « باسم ربك » . وهنا يفترق العلم فى صورته الإسلامية عن العلم فى صورته الأوربية ، بل تفترق الحضارة الإسلامية عن الحضارة الحديثة ، بل تفترق الحياة الإسلامية فيما يجب أن تكون عليه عن الحياة الأوربية ، وذلك أن كل أمر من أمور المسلم يجب أن يكون : « باسم ربك » .

فالعلم – أسساً وبواعث – يجب أن يكون : « باسم ربك » والعلم – أهدافاً وغايات – يجب أن يكون « باسم ربك » ، يجب أن يكون العلم فى سبيل الله ، أى أن يكون للخير والفضيلة ولإسعاد الإنسانية ، فإن ما كان « باسم ربك » يحقق كل خير ، وكل مكرمة ، وكل فضيلة ، وتسعد به الإنسانية .

والواقع ، والحقيقة أن القراءة المأمور بها فى الآية الكريمة ليست إلا رمزاً فحسب ، إنها رمز لما ينبغى أن تكون عليه جميع أعمال المسلم . والآية تريد أن تقول : تكلم باسم ربك ، قم باسم ربك ، اعمل باسم ربك ، لتكن حياتك كلاماً وصمتاً ، حركة وسكوناً ، باسم ربك .

والآية الكريمة واضحة وضوحاً بيناً فى الصورة الإيجابية من الأعمال ، بيد أنها تتضمن الصورة السلبية أيضاً ، هذه الصورة التى صرحت بها الآيات فيما بعد : (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق)[1] . وكذلك كل ما ذبح باسم

(١) سورة الأنعام آية : ١٢١ .

الأصنام ، فلم يذكر اسم الله عليه فسق ، يجب اجتنابه : (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ماذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق . اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ، اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم)المائدة : ٣ .

وسواء أكنا بصدد ماصرحت به الآيات الكريمة : « اقرأ باسم ربك » ، أم بصدد ماتضمنت – فإن هذه الآية الكريمة التى أجملت دستور الأمة الإسلامية إيجاباً وسلباً ، صراحة أو رمزاً أو إشارة – تفصلها نوعاً من التفصيل ، آية أخرى فيها أمر إلهى لمن أعده الله ليكون أسوة حسنة للإنسانية : (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) . الأنعام : ١٦٢ – ١٦٣ .

إن الله سبحانه وتعالى يقول : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) . الأحزاب : ٢١ .

وهذه الأسوة الحسنة كانت صلاته ، وكان نسكه ، وكانت حياته كلها بل كان مماته . . كان كل ذلك خالصاً لوجه الله الكريم لايشركه سبحانه فيه شريك .

والمسلمون مأمورون بأن يسيروا على نهج رسولهم ، فتكون حياتهم سلباً وإيجاباً ، حركة وسكوناً ، بل ويكون مماتهم لله وفى سبيل الله . إنها فى جميع مظاهرها وظواهرها يجب أن تكون قراءة « باسم ربك » : (ألا لله الدين الخالص)[1] . فكل ما لم يكن خالصاً لوجهه أوكل ما لم يكن قراءة باسمه فليس عملاً إسلاميا . (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) الحج : ٣٧ .

ولكن لماذا عدلت الآية الكريمة عن لفظ الله إلى لفظ : « ربك » ، فى الآية الكريمة : (اقرأ باسم ربك الذى خلق) ولقد كنا نتوقع ونحن بصدد أول آية نزلت من القرآن أن تأتى الآية بلفظ « الله » فتكون : « اقرأ باسم الله الذى خلق ». وذلك

(١) سورة الزمر آية : ٣ .

أن هذا اللفظ الكريم « الله » ، يتضمن جميع صفات الله وجميع أسمائه .ولكن الآية الكريمة عدلت عن ذلك إلى لفظ « الرب » . وهذا العدول إنما هو لحكمة بالغة : ذلك أن الله سبحانه ينبه من أول الأمر إلى أن القراءة يجب أن تكون باسم « الرب » ، . . باسم « المربى » أى أن القراءة يجب أن تكون فى الإيجاب والسلب ، فى الحركة والسكون ، فى النطق والصمت — فى إطار التربية الإلهية ، فى إطار الأوامر والنواهى ، فى إطار مارسمه الله للفرد ، وفى إطار ما رسمه الله للمجتمع .

والعدول عن اللفظ الكريم « الله » إلى اللفظ الكريم « الرب » إنما كان — فى بعض أهدافه — لهذا ، إن هذا العدول يريد أن يقول للإنسان : إنك حينما تدخل — حرا مختاراً — فى عهد الله وفى دينه وفى ميثاقه — يجب أن تروض نفسك منذ المبدأ على أن تستجيب استجابة مطلقة لله سبحانه وتعالى فى أمره ونهيه . يجب أن تعقد العزم على أن تكون ربانيًّا .

أما مايبرر ضرورة هذه الاستجابة إلى « ربك » فإن البرهان الضخم الحاسم يتمثل فى قوله تعالى : (الذى خلق) .

وذلك أن الذى خلق أى الذى كون جميع أجزائك ، وركب جميع أعضائك ، ورتب جميع خلايا جسمك وجميع ذرات وجودك ، وأنشأك خلقاً سويًّا — أن هذا الذى فعل ذلك هو الأعرف بك .

وحينما يضع دستوراً لك ، وحينما يرسم لك الحياة التى تسير عليها — فإنما يفعل ذلك على علم ، ويفصل ذلك عن حكمة . إنه البارئ ، إنه المكون ، إنه الخالق ، إنه المبدع . فكيف يتأتى أن نعدل عن تربية مخلوق ، ومهما بلغت عقلية هذا المخلوق ومهما بلغ نضجه فإنه مخلوق لا خالق ، مكوَّن لا مكوِّن ، ولا يتأتى فى عرف ذوى البصائر المستنيرة العدول عن تربية المربوب . إنه عدول عن تربية الكامل إلى تربية الناقص .

توجيهات بالنسبة للغزو الفكرى
وللثقافات الواحدة

وإذا قرأ الإنسان باسم ربه ، إذا استجاب الإنسان – بمقتضى دخوله فى عقد الإيمان – للتربية الإلهية ، إذا كيّف الإنسان حياته كلها لتكون قراءة باسم ربه . . . فقد أسلم .

وإن : « اقرأ باسم ربك الذى خلق) لايخرج معناها ، فى ثمرته ، عن معنى : « أسلمت » والمسلم هو من دخل فى الإسلام ، والإسلام هو أن يسلم الإنسان وجهه لله ، ولقد سئل رسول الله ﷺ عن معنى الإسلام ، فقال : « أن تسلم لله وجهك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك » .

والإنسان إما مسلم صادق وإما مسلم مزيف ، والمسلم الصادق لايسمح لنفسه أن ينهل من منابع غير إلهية فى الأمور التى أنزل الله فيها وحياً ، إن المؤمن الصادق لايتخذ له فى العقيدة أو فى الأخلاق إماماً غير إمامه الربانى ، والأمور التى أتى بها الدين ونزل بها الوحى وصرح بها الكتاب مبادئ لايجوز – فى أعراف المؤمنين الصادقين – العدول عنها إلى غيرها .

والموقف القرآنى فى ذلك حاسم كل الحسم : (فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ، ويسلموا تسليماً)[1] .

ولقد حرص الرسول ﷺ طيلة حياته على أن تستمر المنابع التى يستقى منها المسلمون صافية صفاء مطلقاً ، وعلى أن تستمر القراءة[2] « باسم ربك » لا تستقى إلا من المنابع الإسلامية الصافية .

وأول منبع هو القرآن الكريم . ولقد حرص رسول الله ﷺ ألا يختلط بالقرآن

---

(١) سورة النساء آية : ٦٥ .

(٢) لعل القارئ يلاحظ أننا نستعمل القراءة هنا على أنها رمز للحياة كلها فى حركتها وسكونها كما سبق أن أوضحنا ذلك .

غيره . وكان شديد الحرص فى ذلك إلى درجة أنه لم يسمح فى العهد الأول من الوحى أن تكتب الأحاديث التى كان ينطق بها حتى لاتختلط بالقرآن . ثم لما بانت معالم القرآن ، وبدت أوصافه الذاتية فى وضوح وأسفرت آياته عن شخصيته سمح الرسول ﷺ بكتابة السنة .

ولقد حرص رسول الله ﷺ ألا يلوث الدين الإسلامى بغيره ، ولقد روى المحدثون فى ذلك أحاديث فى غاية العمق ، منها مارواه الإمام أحمد ، قال : حدثنا سريح بن النعمان ، حدثنا هشام ، أنبأنا خالد عن الشعبى ، عن جابر : أن عمر بن الخطاب أتى النبى ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبى ﷺ ، قال : فغضب وقال : « أتهوَّكونَ فيها يابن الخطاب ؟ والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شىء فيخبروكم بحق فتكذبوه أو بباطل فتصدقوه ، والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى » .

وأخرج عبد الرازق فى المصنف ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن الزهرى أن حفصة جاءت إلى النبى ﷺ بكتاب من قصص يوسف فى كتف ، فجعلت تقرؤه عليه والنبى عليه الصلاة والسلام يتلون وجهه ، فقال : « والذى نفسى بيده لو أتاكم يوسف وأنا بينكم فاتبعتموه وتركتمونى ضللتم أنا حظكم من النبيين وأنتم حظى من الأمم » .

وأخرج عبد الرازق والبيهقى أيضاً عن أبى قلابة « أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه مر برجل يقرأ كتاباً فاستمعه ساعة فاستحسنه ، فقال للرجل : اكتب لى من هذا الكتاب ، قال : نعم . فاشترى أديماً فهيأه ثم جاء به إليه فنسخ له فى ظهره وبطنه . ثم أتى النبى ﷺ فجعل يقرؤه عليه ، وجعل وجه رسول الله ﷺ يتلون ، فضرب رجل من الأنصار الكتاب وقال : ثكلتك أمك يابن الخطاب : ألا ترى وجه رسول الله ﷺ منذ اليوم وأنت تقرأ عليه هذا الكتاب ؟ فقال النبى ﷺ عند ذلك : « إنما بعثت فاتحاً وخاتماً ، وأعطيت جوامع الكلم وخواتيمه ، واختصر لى الحديث اختصاراً ، فلا يهلكنكم المتهوكون » (أى الواقعون فى كل أمر بغير روية) .

وأخرج الفريابى ، والدارمى ، وأبو داود فى مراسيله ، وابن جرير ، وابن

المنذر ، وابن أبى حاتم عن يحيى بن جعدة قال :

جاء ناس من المسلمين بكتف قد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود ، فقال رسول الله ﷺ : «كفى بقوم حمقاً أو ضلالةً أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم ، إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم . فنزلت : (أولَمْ يَكْفِهِمْ أنَّا أنزلْنا عليكَ الكتابَ يُتلَى عليهم إنّ فى ذلك لرحمةً وذِكْرَى لقومٍ يؤمنون) العنكبوت/٥١ .

ولقد اختلف موقف المسلمين ذوى الألباب الزاكية اختلافاً صريحاً سافراً بالنسبة للأخذ من مجالى الحضارة : المادى والروحى : أما موقفهم بالنسبة للمجال المادى من الحضارات التى لم تنشأ فى الجو الإسلامى سواء كان ذلك فى القديم أم فى الحديث – فقد كان ولايزال موقف المشجع على الأخذ منها أينما كانت ، وعلى المساهمة فيها مساهمة فعالة وعلى الارتقاء بها وتطويرها تطويراً مستمرًا . إن اكتشاف نواميس الله فى الكون من واجبات المسلم ، ولقد ترجم سيدنا عمر بن عبد العزيز كتاباً فى الطب لما رأى حاجة المسلمين إلى ذلك . ولما ترجمت كتب الكيمياء والطبيعة والطب والفلك فى عهد أبى جعفر المنصور وبعده لم يجد ذلك من المسلمين إلا كل ترحيب .

ولكن موقف المسلمين فى الجانب الروحى من الحضارات القديمة والحديثة موقف يخالف ذلك كل الاختلاف .

لقد انتهر الرسول ﷺ سيدنا عمر فى شدة لأنه أتى بصحف من التوراة يتلوها ، وغضب صلى الله عليه وسلم على كل من حاول أن يستقى فى العقيدة والأخلاق من منبع غير القرآن والسنة النبوية الشريفة ، وسار المسلمون على هذا النسق من التفرقة بين الجانب المادى والجانب الروحى حتى كان عصر المأمون ، ومهما تحدث المتحدثون عن الازدهار والقوة والمجد فى عصر المأمون ، ومهما قالوا من أنه العصر الذهبى للأمة الإسلامية فإنه مع ذلك عصر يتسم بسيئتين : إحداهما لايغفرها له المحبون للحرية ، والأخرى لايغفرها له أهل الصلاح والتقوى :

أما الأولى فإنها دخول المأمون فى النزاع الذى كان بين علماء المسلمين فى مسألة خلق القرآن ، لقد دخل المأمون فى هذا النزاع بقوة الدولة رغبة ورهبة ، لقد دخل

متحيزاً لفئة ، منكلاً بالفئة الأخرى .

ولقد تحيز للمعتزلة ، والمعتزلة قوم حكموا أهواءهم فى الدين وحسبوا أن مايقولونه إنما هو حكم العقل ، ولو كان حكم العقل لما اختلفوا هم وتفرقوا شيعاً وأحزاباً ، إنهم لم يأخذوا الدين مأخذ المستهدى ، ولم يعترفوا بأن الدين نزل هادياً للعقل ، وإنما رأوا أن العقل هو المرتبة الأولى فى معرفة الخير والشر ، وهو قوم كانوا يتسمون بالتحمس الشديد للجدل النظرى ويتسمون بالفتور الشديد للجانب العملى من الدين ، ومن أجل ذلك انصرف جمهور الأمة الإسلامية عنهم .

وكان فى مواجهة هؤلاء طائفة من علماء المسلمين تتسم بالصلاح والتقوى ، وتوطين النفس على الاستهداء بالدين وعلى السير فى ركاب النص القرآنى أو الحديث النبوى . ولقد كانت هذه الطائفة تتسم بالتحمس الشديد للجانب العملى من الدين ، وكانت تتسم بقوة الإيمان ، فصير ذلك حياتها إلى جهاد فى سبيل الله وكفاح من أجل المسير على ما كان عليه رسول الله ﷺ وخلفاؤه رضى الله عنهم والصدر الأول للأمة الإسلامية ، وكان يضم أمثال الإمام أحمد بن حنبل والإمام (مالك) وكان يهتدى بهديهما ويقتدى بسلوكهما جمهور الأمة الإسلامية .

لقد ترك المأمون هذه الطائفة وانحاز إلى المعتزلة ، انحاز إلى المعتزلة بقوة الدولة فأغدق المال على أنصاره ، وأخذ ينكل بكل من يعارضه ، وكان المعارضون له هم المتسمين بالصلاح الحقيقى والتقوى الصادقة ، إنهم أمثال الإمام الصالح أحمد بن حنبل .

وما كان لنا أن نعيب دخول المأمون فى نزاع علمى لو أنه دخل دخول الأب الرحيم المهدئ للنزاع ، لو أنه دخل دخول الأخ الأكبر ملطفاً ومانعاً للحدة بين الإخوة ، إننا لانتقد الدخول فى النزاع إنما ننتقد الكيفية والصورة ، إنها ليست صورة دخول علمى فى موضوع نقاش دينى ، وإنما هى صورة دخول جبروتى ، دخول من يريد أن يأمر ليطاع ، دخول من لايريد أن يصغى إلى نصح ولا أن يستجيب لبرهان !

هذه سيئة ، وهى سيئة لايرضى بها أحرار الفكر ولايرضى بها المتدينون . .

أما الأخرى : فهى أنه برغم موقف جمهور المسلمين الحاسم من التراث الروحى للأمم الأخرى وبرغم معارضتهم الشديدة للغزو الفكرى – فإن المأمون تحداهم تحدياً سافراً ، آمراً بترجمة التراث الروحى والتراث الأخلاق للأمم الأخرى ، يونانية كانت أو فارسية أو غيرهما .

لقد ظن المأمون أن ذلك سينصره فى القضية التى اتخذ الخصومة فيها مسألة كرامة ذاتية .

ولقد حكى ابن النديم فى ذلك رؤيا للمأمون معبرة أوضح مايكون التعبير : عن نزعة المأمون أو عن نزغته . لقد رأى المأمون فيما يراه النائم : رجلاً أبيض اللون ، مشرباً بحمرة ، واسع الجبهة ، حسن الشمائل ، جالساً على سرير . قال المأمون : وكأنى بين يديه وقد ملئت هيبة من هو هذا الرجل ؟ أهو أحد الخلفاء الراشدين ؟ أهو أحد كبار الصالحين ؟ إن المأمون يصفه وصفاً جميلاً ، وصورته تملأ المأمون هيبة : فمن هو يا ترى ؟

يقول المأمون : فقلت : من أنت ؟ فقال : أنا أرسطو . فسررت به ، وقلت : أيها الحكيم ، أسألك ؟ قال : سل . . . قلت ماالحسن ؟ قال : ماحسن فى العقل . قلت : ثم ماذا ؟ قال : ماحسن فى الشرع . قلت : ثم ماذا ؟ قال : ما حسن عند الجمهور . قلت : ثم ماذا ؟ قال : ثم لا ثم . قلت : زدنى . قال : عليك بالتوحيد .

وسواء أصحت هذه الرؤيا أم لم تصح فإنها تعبير صادق عما كان فى نفس المأمون وفى نفس المعتزلة من إكبار أرسطو .

ولعل القارئ قد لاحظ مبدأ فى غاية الخطورة وهو مبدأ تقديم العقل على الشرع . لقد جعلت رؤيا المأمون ، العقل فى الدرجة الأولى ، وجعلت الشرع فى الدرجة (الثانية) ، وهو مبدأ معروف عند المعتزلة وعند المأمون ، وهو مبدأ لايقره أمثال الشافعى ومالك وأحمد بن حنبل رضى الله عنهم أجمعين . أما التوحيد فى الرؤيا فإنه التوحيد الذى عناه المعتزلة والذى عبر عنه أهل السنة بكلمة « التعطيل » واستيقظ المأمون من رؤياه : فأمر بترجمة كتب أرسطو .

ولاقت هذه البدعة الجديدة بدعة ترجمة كتب العقائد وكتب الأخلاق –

معارضة شديدة فى الأجواء الإيمانية . لقد رأت هذه الأجواء أن فى عقائد المسلمين وفى أخلاق المسلمين من الصدق ومن الحق ومن الوضوح مايغنى عن غيرها . ورأت أن عقائد المسلمين وأخلاق المسلمين قد حددها الأسلوب الإلهى وبينها الأسلوب النبوى :

إن الله سبحانه وتعالى هو الذى عبر عنها ، وإن رسوله ﷺ قد طبقها ، وهذه ميزة لاتوجد فى غير الدين الإسلامى .

أمن المعقول أن يدع عاقل من العقلاء الرسم الإلهى لصلة الإنسان بربه ولصلة الإنسان بالآخرين إلى رسم بشرى لهذه الصلة ، رسم يخطئ ويصيب ، ويضل ويهتدى ؟

أمن المعقول أن يدع الإنسان الأسلوب الإلهى فى نضرته ودقته وإحكامه ، وفى وضوحه ، وبلاغته ، وإعجازه إلى أسلوب بشرى يترجمه أسلوب بشرى آخر ؟

إن البشر فى تأليفهم بشر مهما بلغوا من الدقة ، ورحم الله العماد فى قولته المشهورة من أنه لاينتهى الإنسان من تأليفه إلا يتمنى أن لوعاد التأليف من جديد ليغير ويبدل ويزيد ويحذف ، وهذا شأن البشر ، شأنهم على مر العصور مهما بلغوا من العبقرية والنضج !

وهذا التأليف على هذا النمط لاتقرؤه بلغة صاحبه ، وإنما تقرؤه بلغة مترجم يترجم مافهم هو من معانى المؤلف ، إن الترجمة مهما بلغت من الدقة ليست إلا فهم المترجم لكلام المؤلف .

ولم الترجمة ؟ أفى العقيدة التى جاء بها القرآن والسنة نقص يستكمل ؟ أفى الأخلاق التى رسمها الله ورسوله خلل تزيله ترجمة كتب الوثنيين ؟

إن الآراء لاتستند إلى وحى معصوم وهى آراء وثنية وإن الفرق بين الوثنية والإيمان إنما يرجع إلى أن الإيمان مصدره الوحى ، أما الوثنية فمصدرها البشرية فى عجزها وقصورها وجهلها ، وإن البشرية مهما بلغت من الرقى الحضارى لاتنفك متسمة بالعجز والقصور والجهل . وإن الاكتشافات الحديثة التى لاتنقطع والتى تطلع علينا الأخبار منها كل يوم بجديد لهى أوضح دليل على عجز البشرية وقصورها وجهلها .

ولن تبلغ البشرية يوماً ما حد الكمال ، لأنه لن تصل البشرية يوماً إلى الانتهاء من اكتشاف كل مجهول والكشف عن كل غامض ، وإزالة الحجب عن جميع المعميات .

أنترك العصمة المطلقة فى الوحى ، ونترك بيان من لاينطق عن الهوى ، لنأخذ بقول هذا أو ذاك ممن يتسمون دائماً بالنقص والعجز وممن جهلهم أكثر من علمهم مهما بلغوا فى المعرفة والعلم ؟

هذه الآراء التى كانت تدور فى البيئة الإسلامية إذ ذاك والتى كان يؤمن بها ويتقبلها الأغلبية من الشعب ، لم تقف فى وجه الترجمة ، ولم تحل دون تنفيذ المأمون لفكرته .

لقد نفذ المأمون الفكرة ، ووجد الأمراء أن من إرضاء المأمون أن يؤثر الإنسان هذه الفكرة ، وأحب الأمراء رضاء المأمون ، فساهموا فى مشروع الترجمة . ووجد الأثرياء أن من وسائل التقرب إلى المأمون أن يساهموا فى مشروع الترجمة ، فعملوا على المساهمة بمالهم فى مشروع الترجمة . ووجد المثقفون أن من عوامل التقرب إلى المأمون أن ينشروا آراء أرسطو وأفلاطون وغيرهما ، فتعلموها ، ودرسوها ، وعلموها .

وإذا كانت أفكار اليونان قد بدأت الدخول فى البيئة الإسلامية على استحياء فإنها بمر الزمن استوطنت ، وألفها كثير من الناس عن طريق التكرار ، وشاعت الآراء واستقرت بالإلف والعادة والتبى والدعاية .

ومنذ ذلك الحين أصبح بجوار (اقرأ باسم ربك الذى خلق) . . أصبح بجوارها : « اقرأ باسم أرسطو ! » ، و « اقرأ باسم أفلاطون ! » ، وفى العصور الحديثة : « اقرأ باسم ديكارت ! » .

وبدأ انحلال الأمة الإسلامية لأنها لم تعد تقرأ « باسم ربك » ، أوقل : إن انحلال الأمة الإسلامية وضعفها بدأ منذ أن بدأت تشرك مع التعاليم الإسلامية غيرها .

وإذا كان عصر المأمون يؤرخ العصر الذهبى للأمة الإسلامية فإنه أيضاً يؤرخ

اللحظات الأولى لدبيب الضعف فى هذه الأمة .

إن الفلسفة اليونانية والفكر النظرى فى العقيدة والأخلاق والانصراف إلى ذلك والاشتغال به وجعله مظهراً للحضارة والرقى والمدنية – لاينتج إلا فتورا فى الإيمان وتخاذلاً فى العزائم وتشككاً فى كل القيم .

وهل ينتج البحث العقلى – البحث فى القيم والمعايير الدينية والأخلاقية – على أسلوب الإنكار الإثبات ، والأخذ والرد ، والجدل والمماراة – إلا فتوراً واستهانة ؟

هل أنتجت الفلسفة إيماناً قويًّا ؟ هل أنتجت عزائم من حديد ؟ هل قادت إلى النصر ؟

وتأمل معى مليا فى أسباب نهضة أوربا فى عصورها الحديثة .

إننا نعرف أن أوربا عاشت أزماناً متطاولة فى جهل وهمجية وانحطاط ، ولقد عاشت كذلك لأنها كانت تتبنى نزعة أرسطو أو منهج أرسطو : أى أنها كانت تتبنى الجدل الفارغ الذى لايؤدى إلى نتيجة ولاينتهى إلى ثمرة . اللهم إلا الفتور والتخاذل والشك .

ثم بدأت أوربا تتنبه إلى منهج فى الحياة آخر وبدأ « بيكون » يعلن عن طريقة وأسلوب للمعرفة لايعتمد على العقل النظرى البحت ، وبدأ منهج التجربة والملاحظة والاستقراء .

وأرخ هذا الاتجاه التجريبى بدء عصر النهضة الأوربية . وكما أرخ بدء دخول الفكر الأرسطى [1] انحطاط الأمم الإسلامية – فقد أرخ بدء التخلى عن هذا الفكر بدء النهضة الأوربية الحديثة .

وإذا كان المسلمون قد بلغوا قمة مجدهم حينما كانوا يقرءون « باسم ربك » وحده فإنهم بلغوا قمة ضعفهم حينما بلغت هذه « باسم ربك » حدها الأدنى : أى حينما تخلوا أو كادوا عن أن يتخذوا من منابع دينهم الصافية موجهاً وقائداً .

ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، أى العودة إلى « اقرأ [2] باسم

(١) لا نقصد أرسطو بالذات ، أو أرسطو فقط ، وإنما نقصد الفكر النظرى فى مسائل ماوراء الطبيعة والأخلاق الذى لايستند إلى وحى معصوم .

(٢) نعود فنقول : إننا نعنى بـ « اقرأ » رمزاً للحياة كلها فى حركتها وسكونها فى صمتها ونطقها .

ربك الذى خلق » .

ولكن هل يعنى ذلك أن تمنع الترجمة ؟ هل يعنى ذلك أن نعيش فى عزلة عن الفكر العالمى ؟ هل يعنى ذلك أن نمنع أنفسنا عن الاطلاع على الثمار التى أنتجتها عقول العباقرة أمثال أفلاطون وديكارت وأسبينوزا وبرجسون ؟ ليس إلى هذا قصدنا ، وإنما قصدنا إلى معنى يعلمه فى وضوح كل من يتتبع تاريخ الفكر البشرى عبر القرون .

إن الظاهرة الواضحة فى تاريخ الفكر البشرى الذى لايستند إلى التجربة أو الملاحظة أنه متغير باستمرار ، وأنه لايستقر على رأى ، وأنه فى صيرورة دائمة . وهذه الصيرورة ليس من الحتم أن تسير دائماً فى طريق الجديد ، بل يجوز أن تعود القهقرى ، فترجع إلى مذهب تخلت عنه ، وتعود إلى ماكانت قد عزفت عنه ، ويأخذ القديم طريقه إلى الانتشار من جديد ، ثم يعفى عليه الزمن مرة ثانية أو ثالثة ، وهكذا يعيد التاريخ الفكرى نفسه تارة ويتجدد أخرى .

ومن الملاحظ أيضاً أنه ليس من الحتم أن يكون الجديد ترقياً فى الفكر أو سموًّا فى الآراء ، بل قد يكون على العكس من ذلك انتكاساً وانحداراً !

وهذه الظاهرة البادية لكل دارس جعلت بعض المفكرين يقولون : إن الآراء النظرية البحتة مثلها كمثل أزياء النساء تستبدل كل عام ! وهذا التشبيه للآراء العقلية البحتة فى جانب العقيدة وفى جانب الأخلاق بأزياء النساء فى التبدل والتغير والاختلاف والتطور من القديم إلى الجديد ومن الجديد إلى القديم – تشبيه فى غاية الصدق : كادت فرنسا يوماً أن تؤله « أوغسط كومت » ، وكان أتباعه ومريدوه يقدسونه ويضعونه على القمة . . ومضى الزمن وأصبحت آراء « أوغسط كومت » لايقام لها وزن ، اللهم إلا أنها حلقة من حلقات التاريخ الفكرى الذى عفى عليه الزمن .

ولقد كانت السوفسطائية يوماً ما أكثر المذاهب انتشاراً فى اليونان ، ثم عفى عليها الزمن واندثرت وتبينت الأمة اليونانية أنها مذهب هدام ، بل يصل به الهدم إلى

هدم نفسه ، وانتهت الأمة اليونانية منه ودفنته وتعفن كمذهب ، ثم بعثته طائفة من المنحرفين فى العصر الحديث تحت اسم « الوجودية » وليست الوجودية إلا هذا المذهب المتعفن الذى تقايأه بعض المنحرفين فى اليونان منذ مايقرب من خمسة وعشرين قرناً من الزمن .

ولقد طنطنت الدنيا لمذهب ديكارت ، وصفق العالم له ، وظن الديكارتيون أن منهج ديكارت سيحل كل مشكلة ، ويزيل النقاب عن كل محجوب ، ويكشف عن كل مخبأ . . وتمضى الأيام وإذا بالمشاكل هى المشاكل ، والمحجوب هو المحجوب ، والمخبأ هو المخبأ برغم استعمال منهج ديكارت وتحكيمه عن طريق ديكارت نفسه وعن طريق الديكارتيين . وتمضى الأيام كذلك وإذا بآراء ديكارت فى الطبيعة – آراؤه التى بناها متخذاً منهجه فيصلاً – قد انهارت رأساً على عقب !

ولنتحدث الآن عن الفلسفة بصراحة .

إن من خصائصها – على مر الزمن – أنها تبدأ من الصفر : أى أن كل فيلسوف يأتى يعلن أن العالم منذ أن وجد لم يظهر على وجهه شخصية وصلت إلى الحق فى محيط ماوراء الطبيعة وفى محيط الأخلاق ، وأن مجال العقائد ومجال الأخلاق مازال بحاجة إلى نظرة من الأساس ، وأنه مازال بحاجة إلى بناء يبدأ بوضع اللبنة الأولى تليها اللبنة الثانية إلى أن يتم الصرح . ويعلن الفيلسوف بذلك أن جميع الصروح القديمة فى تصميمها خلل ، وفى وضعها فساد ، وأنها خطأ فى منهجها وفى وضعها ، وأن العالم الذى عاش بهذه الطريقة قد عاش – منذ أن وجدت هذه الصروح – فى أوهام . إنه يعلن بذلك أن آراء الفلاسفة السابقين . . . أوهام !

ومن خصائص الفلسفة أنه لامقياس لها تلجأ إليه عند الاختلاف . لقد أخفق منطق أرسطو عند أرسطو نفسه ، وأخفق عند كل المناطقة ، إنه لم يحسم الخلاف فى مسألة ما .

وأخفق منهج ديكارت عند ديكارت وعند كل من استعمله . ومنهج أرسطو ومنهج ديكارت هما أشهر المناهج فى الفلسفة القديمة والحديثة . كيف نصل إلى الحق إذا اختلفنا فى مسألة ؟ كيف نحسم الخلاف إذا أردنا ذلك ؟ كيف نتفق ؟ إن ذلك

لاسبيل له فى الجو الفلسفى !

إن العلم المادى إذا اختلف فيه العلماء فإن الفاصل فى هذا الخلاف إنما هو التجربة أو الملاحظة . والملاحظة والتجربة فيصل فى الجو العلمى المادى . ماهو الذى – فى الجو الفلسفى – بمثابة التجربة فى الجو العلمى ؟ لاشىء .

ومن هنا نشأ أمران هما من خصائص الفلسفة :

أما أحدهما فهو أن الفلسفة ، فى جميع آرائها – عقلياً – ظنية : ذلك أنه لاوسيلة فيها للفصل بين الخطأ والصواب .

أما الآخر فهو أن الخلاف فى الفلسفة سيستمر أبد الدهر : ستجد دائماً المؤيد للفكرة – أى فكرة – والنافى للفكرة – أى فكرة – ستجد المثبت والمنكر .

وينتج عن كل ماقدمناه نتيجة لازمة هى من خصائص الفلسفة أيضاً ، وهى أن الفلسفة لاتقدم فيها . إن مسائلها القديمة هى مسائلها الحديثة ، ومشاكلها مشاكلها فى كل عصر وفى كل زمن . إن مسائل الفلسفة ومشاكلها فى عهد أفلاطون هى مسائل الفلسفة ومشاكلها فى عهد ديكارت ، وهى مسائل الفلسفة ومشاكلها فى الزمن المعاصر . حتى مضحكات الفلسفة – وللفلسفة مضحكات قد صورت بصورة مشاكل – حتى مضحكات الفلسفة لا تزال هى هى . إن برجسون يتحدث عن مشكلات الفيلسوف الساخر زينون الذى ابتدع فى صورة طريفة من البدهيات مشاكل وحاول توريط الفلاسفة فيها ، ونجح فى أن جرهم إلى البحث فى البدهيات ، وإلى جعلها مشاكل ، وإلى الوقوف عاجزين أمامها مع بداهتها ، وسخر منهم زينون ، وسخر منهم كل ذى بصر وبصيرة .

ومن كل ذلك أيضاً نتبين أن الفلسفة – وهذا من خصائصها أيضاً – لا رأى لها معيناً فى أية مسألة من المسائل . وذلك أن لها فى كل مسألة رأيين متعارضين أو آراء متعارضة .

ولعله أصبح الآن سافراً أن من « يقرأ باسم الفلسفة » فإنما يقرأ باسم سراب .

أما النتيجة التى نريد أن نصل إليها من كل ماتقدم فهى أننا لو قرأنا الآراء النظرية البحتة على هذا الوضع الذى أوضحناه ، فلا بأس ، وتكون بذلك القراءة

باسم الفلسفة أو باسم الجانب النظرى من الفكر الإنسانى مسلاة وتسلية وسياحة فى أجواء تختلف وتتعارض وتتناقض ، ونستفيد منها عبرة فيما يتعلق بعجز الإنسان وقصوره ، ونعود من هذه السياحة مقتنعين بوجوب :

(اقرأ باسم ربك الذى خلق) .

(اقرأ باسم ربك الذى خلق) كيف ؟

إذا أراد إنسان أن يدخل فى رحاب : (اقرأ باسم ربك الذى خلق) .

إذا أراد إنسان أن يتأسى برسول الله ﷺ فيحاول أن يقترب ما استطاع من : (إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لاشريك له) الأنعام : ١٦٢ — ١٦٣ .

إذا أراد الإنسان أن يدخل فى معنى « الإسلام » .

فكيف يبدأ ؟

ماهى الخطوة الأولى ؟

ما الطريق ؟

إنه يبدأ بالدخول فى النظام القرآنى ، والدخول فى النظام القرآنى معناه العزم المصمم على التخلى عما ليس بقرآن . وهذا مايسمى فى العرف الإسلامى أو فى النظام القرآنى : « التوبة » .

ولقد أمر الله فى القرآن بالتوبة . وحث عليها . وحبب فيها ، وأوجبها فى بعض الأحيان . .

والواقع أنها اللبنة الأولى فى الطريق إلى الله . وهى اللبنة الأولى فى طريق إسلام الوجه لله . .

ولقد فتح الله باب التوبة على مصراعيه تفضلاً منه ورحمة . يقول سبحانه فى حديث قدسى . وفى أسلوب كله رأفة : « ياعبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار ،

وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم » ويقول رسول الله ﷺ : « كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » .

ورسول الله ﷺ يخبر أن الله سبحانه وتعالى « يفرح » بتوبة عبده المؤمن ، ويعرفنا رسول الله ﷺ : أن ربنا ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا عند ثلث الليل الأخير فينادى : ألا هل من مستغفر فأغفر له ؟ ألا هل من تائب فأتوب عليه . . . ؟

ويقول الله سبحانه وتعالى فى صورة من تجلى الرحمة ، وسعة من شمول الرأفة بالعباد ، يقول : (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) [١] .

ويلى هذه الآية الكريمة ما يبين الطريق إلى المغفرة والرحمة فيقول سبحانه وتعالى : (وأنيبُوا إلى ربكم وأسلِمُوا له مِنْ قبلِ أن يأتيَكمُ العذابُ ثم لا تُنْصرُون) [٢] أى ارجعوا إلى الله بالتوبة وإسلام الوجه له . ثم بين لهم الطريق الصحيح الذى يلى التوبة إذا صدقت بقوله تعالى: (واتّبعوا أحسنَ ما أنزل إليكم من ربِّكم من قبلِ أن يأتيَكم العذابُ بغتةً وأنتم لا تشعرون) [٣] .

والله سبحانه وتعالى فى هذا يوجه الذين صدقوا فى توبتهم إلى أن يتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم ، وإذا صدقت التوبة فإن هذا الصدق يستتبع كلازم من لوازمه أن يستقيم الإنسان على الطريق . والله سبحانه وتعالى يسد على الذين يبين لهم الطريق باب المعاذير فيما بعد مهدداً تهديداً يقصد به حث الإنسان على أن يسارع بالتوبة الصادقة ، فهو تهديد من رحمن رحيم . يقول سبحانه : (أن تقول نفس ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين . أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين ، أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين) [٤] .

فإذا ماقال الإنسان ذلك أو تعلل بأمثاله فإن الرد يأتيه من رب العزة حاسماً

---

(١) سورة الزمر آية : ٥٣ .
(٢) سورة الزمر آية : ٥٤ .
(٣) سورة الزمر آية : ٥٥ .
(٤) سورة الزمر الآيات : ٥٦ - ٥٧ - ٥٨

قويًا : (بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) [١] .

ثم يبين الله سبحانه وتعالى حال الكافر يوم القيامة فيقول : (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين) [٢] .

ويختم سبحانه هذه الآيات التى ترسم طريق المؤمن بما يبشر من اتبع الطريق وسلك سواء السبيل فيقول سبحانه : (وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون) [٣] .

والآن قد وضح الطريق ، فهو أولاً : التوبة ، وآخراً : اتباع أحسن ماأنزل الله . .

ولقد كان أسلافنا رضوان الله عليهم - متابعة للأوضاع الإسلامية - يبدءون أعمالهم الهامة بالتوبة الخالصة النصوح . لقد كانوا يبدءون أول شهر رمضان بالتوبة ، ويبدءون الحج بالتوبة . ولعل الكثير من ذوى البصائر قد لاحظوا أن الرحلة المباركة ، رحلة الإسراء والمعراج بدأت بشق الصدر . وشق الصدر بالنسبة لنا : إنما هو التوبة الخالصة النصوح ؛ لأن التوبة تطهرٌ وطهر . وإذا تاب الإنسان فإن ذلك بمثابة إتيان ملكين يشقان عن صدره ويغسلانه بالثلج والبرد أو بماء زمزم : أى يطهرانه .

إن التوبة تطهر الإنسان من المعصية ، إنها تجب ماقبلها : أى تزيله وتمحوه .

والتوبة التى من هذا النمط لها شروط لابد من توافرها حتى تهيئ الإنسان لشق الطريق إلى الله تهيئة موفقة .

يقول الإمام النووى من كتاب رياض الصالحين : قال العلماء : التوبة واجبة من كل ذنب .

فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لاتتعلق بحق آدمى فلها ثلاثة شروط .

أحدها أن يقلع عن المعصية . والثانى : أن يندم على فعلها . والثالث : أن

---

(١) سورة الزمر آية : ٥٩ .

(٢) سورة الزمر آية : ٦٠ .

(٣) سورة الزمر آية : ٦١ .

يعزم على ألا يعود إليها أبداً . فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته .

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربعة : هذه الثلاثة وأن يبرأ من حق صاحبها . فإن كانت مالاً أو نحوه رده إليه . وإن كانت حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه . وإن كانت غيبة استحله منها . ويجب أن يتوب من جميع الذنوب : فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب ، وبقى عليه الباقى .

أما اتباع أحسن ما أنزل الله فإنه يبدأ بما كان يبدأ به رسول الله ﷺ مع الداخلين فى الإسلام : أعنى مواد البيعة .

روى الإمام البخارى رضى الله عنه من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه – وكان عبادة شهد بدراً ، وهو أحد النقباء ليلة العقبة – أن رسول الله ﷺ قال وحوله جماعة من أصحابه :

« بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولاتسرقوا ، ولاتزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا فى معروف . فمن وفى منكم فأجره على الله . ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله ، إن شاء الله عفا عنه ، وإن شاء عاقبه » . فبايعناه على ذلك .

وروى الإمام أحمد من حديث سلمى بنت قيس – وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ ، وقد صلت معه القبلتين ، وكانت إحدى نساء بنى عدى بن النجارى – قالت : جئت رسول الله ﷺ نبايعه فى نسوة من الأنصار ، فلما شرط علينا ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف ، قال : « ولا تغششن أزواجكن » .

ولقد وردت بيعة النساء فى القرآن الكريم . يقول تعالى : (**يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئًا ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصينك فى معروف**

فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم)[1] الممتحنة : ١٢ .

ومما يفصل هذه البيعة قوله تعالى :

(قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولاتقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) . الأنعام : ١٥١ - ١٥٣ .

وإذا أردنا إجمالاً للتعاليم الإسلامية من القرآن الكريم فهو قوله تعالى :

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) النحل : ٩٠ .

وأول عقد من عقود البيعة عدم الإشراك بالله . .

وحينما يسمع الناس الحديث عن « عدم الإشراك بالله » يتجه ذهنهم فى الأغلب الأعم منهم - إلى نفى تعدد الآلهة . إن الذهن يتجه إلى أن هذه العقيدة التى كانت عند اليونان فى عهودهم القديمة من تعدد الآلهة وعند العرب فى جاهليتهم من عبادة الأصنام . . باطلة .

لقد جعل اليونان إلها لكل ظاهرة من ظواهر الكون الكبرى ، وكذلك فعل قدماء المصريين فى عامتهم وشعبهم ، وكذلك فعل وثنيو العرب .

بل إن الإنسانية - وقد بدأت بالتوحيد الخالص على يد آدم عليه السلام - قد انحرفت سريعاً إلى التعبد ، فأخذت الأنبياء والرسل تنزل تباعاً مبشرة بالتوحيد مجاهدة فى سبيل منع التعدد وفى سبيل القضاء على الوثنية المنتشرة .

ولقد كان عدد الأنبياء والرسل كثيراً كثرة تناسب الانحراف المتوالى من الإنسانية منذ ظهورها . لقد نزل الأنبياء جميعاً يبشرون بالتوحيد ، وكان كل نبى يدعو أمته

إلى مثل مادعا محمد – ﷺ – الإنسانية جمعاء :

(ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير) هود : ٢ .

وسورة يونس وسورة هود والكثير من سور القرآن على وجه العموم تتحدث عن دعوة الرسل قومهم إلى التوحيد .

يقول سبحانه : (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين . ألا تعبدوا إلا الله ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) هود : ٢٥ ، ٢٦ .

ويقول سبحانه : (وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، إن أنتم إلا مفترون) . هود : ٥٠ .

ويقول سبحانه : (وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه . إن ربى قريب مجيب) هود : ٦١ .

وهكذا نرى كل نبى يدعو إلى عدم الشرك بالله . إنه يدعو إلى عبادة الله وحده ، فإذا اتجه الذهن إلى عدم تعدد الآلهة ، وإلى الوحدانية – فإن هذا الاتجاه طبيعى ، وهو اتجاه حق . . . وهذا النوع من الشرك هو الذى يقول الله سبحانه وتعالى عنه : (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) . النساء ٤٨ .

وهو الذى ينفيه الله منطقيا بقوله : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا . فسبحان الله رب العرش عما يصفون) الأنبياء : ٢٢ .

وبقوله : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون) . المؤمنون : ٩١ .

ولكن التوحيد ليس معناه عدم التعدد فحسب ، كلا . وهو – وإن كان من معانيه عدم التعدد تتسع دائرته فتشمل أموراً أخرى :

يقول أبو سعيد الخراز : « فمن شرح ذلك : أن يكون العبد يريد الله عز وجل بجميع أعماله وأفعاله ، وحركاته كلها ظاهرها وباطنها . لايريد بها إلا الله وحده ، قائماً بعقله وعلمه على نفسه وقلبه ، راعياً لهمه ، قاصداً إلى الله تعالى بجميع أمره » .

وهذا الذى يقوله الإمام أبو سعيد الخراز رضى الله عنه هو بعض معانى : (اقرأ باسم ربك الذى خلق) .

إن (اقرأ باسم ربك الذى خلق) ، توحيد خالص ، والتوحيد الخالص لارياء فيه والله سبحانه وتعالى ، يقول :(ألا لله الدين الخالص) الزمر : ٣ .

وأن المادة الأولى من البيعة الإسلامية تعنى – فيما تعنى من معان – تجريد القصد لله تعالى فى كل عمل وإلا فلا ثواب ولا قبول للعمل : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) الكهف : ١١٠ .

ولقد تحدث القرآن عن الإخلاص والصدق ، وتحدث عنهما رسول الله ﷺ فيما لا يكاد يحصى من النصوص والأحاديث . والتوحيد الخالص والشرك يبدأان بالنية : يقول رسول الله ﷺ مبيناً أن قيمة العمل فى الخير والثواب والقبول تتبع النية : « إنما الأعمال بالنية » (وفى رواية بالنيات) . « وإنما لكل امرئ مانوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » رواه البخارى ومسلم ، وأبو داود والترمذى والنسائى .

فإذا صدقت النية استقام أمر المسلم فيما بعد ، وإذا هفا الإنسان هفوة فعليه أن يتدارك الأمر بالتوبة وصدق النية من جديد .

وصدق النية شرط من الشروط التى يترتب عليها قبول العمل : عن الضحاك بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تبارك وتعالى يقول : « أنا خير شريك ، فمن أشرك معى شريكاً فهو لشريكى يأيها الناس أخلصوا أعمالكم ؛ فإن الله تبارك وتعالى لايقبل من الأعمال إلا ماخلص له ، ولا تقولوا هذه لله وللرحم ، فإنها للرحم ، وليس لله فيها شىء ؛ ولا تقولوا : هذه لله ولوجوهكم ؛ فإنها لوجوهكم ، وليس لله منها شىء » .

والواقع أن الإسلام يعلق أهمية كبيرة على إخلاص النية لله سبحانه وتعالى ، فإن فى إخلاصها لله صدق السريرة وطهارة القلب ، وفيها انتفاء التملق والزلفى ، وبها تنتفى الزلة وينتفى الزيف والرياء . ومن أجل ذلك حذر رسول الله ﷺ من الرياء

تحذيراً شديداً ، وحث على الصدق والإخلاص فى صور شتى .

ولقد قام رسول الله ﷺ وحيداً فريداً يدعو إلى التوحيد بكل معانيه ، ويعلن الحق فى وجه الباطل ، ويدعو إلى الله فى وسط كله شرك ، ويدعو إلى تحطيم الأصنام فى بيئة تعبد الأصنام . ودعوته صلوات الله عليه وسلامه ، ورسالته إلى العالم أجمع : إنما كان أساسها التوحيد ، والإسلام إنما هو دين التوحيد ، وليس للتوحيد معنى إلا الإيمان الصادق اليقينى بأن المهيمن على الكون والمتصرف فيه إنما هو الله سبحانه . وأنه لواجتمع أهل السموات والأرض على أن ينفعوا أى إنسان بشىء مانفعوه إلا بشىء قد قدره الله له ، ولو اجتمع أهل السموات والأرض على أن يضروا أى إنسان بشىء ماضروه إلا بشىء قد قدره الله عليه .

وإذا كان الأمر كذلك – وهو كذلك لا محالة – فإنه لايجتمع الإيمان الصادق والخوف فى قلب المؤمن .

والتوحيد إذن هو الأساس الأول الأصيل للشجاعة الأدبية ؛ كما أنه الأساس الحافز لكثير من الفضائل أو لكل الفضائل .

وتثبيتاً للشجاعة الأدبية وحفاظاً على استمرارها بين الله تعالى الأسباب التى تجعل الشخص يجبر على قول الحق ، ويتراجع فى إعلان الصواب ، وترجع هذه الأسباب إلى أمرين .

الأمر الأول : هو مايمكن أن يعبر عنه بهم الرزق أو خوف الفقر .

وقد بين الله تعالى ، أن الرزق مقسوم ، وأنه محدود ، وأنه ماكان لك فسوف يأتيك ، وماكان لغيرك فلن تناله .

(وفى السماء رزقكم وما توعدون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون)الذاريات ٢٢ ، ٢٣. (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل فى كتاب مبين) . هود : ٦ .

ومن الحق أن الإسلام يحث على العمل ويشجع على الأخذ بالأسباب وأن السماء لاتمطر ذهباً ولا فضة . « ولأن يأخذ أحدكم حبله ، فيحتطب فيبيع فيأكل ويتصدق خير له من أن يتكفف الناس واليد العليا خير من اليد السفلى » .

ومع ذلك فإن الرزق فى يد الله ، ولن يمنع الرزق مانع مهما كان جبروته وسلطانه ، والله غالب على أمره ، وهو سبحانه القوى العزيز القهار .

وأما الأمر الآخر الذى يخذل بعض الناس عن الشجاعة الأدبية فإنه خوف الموت ، وهو خوف لا موضع له : فالله قد حدد الآجال ولو كان الناس فى بروج مشيدة لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم التى يقتلون فيها : (فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون) الأعراف : ٣٤ .

الآجال والأرزاق بيد الله ، وكل فكرة أو رأى أو همس خافت فى النفس يخالف ذلك فإنما هو شرك .

والآن يأتى السؤال : إذا صدقت النية واتبع الإنسان أحسن ما أنزل إليه من ربه فى العمل فما هو السبيل إلى اتباع أحسن ما أنزل الله فى القول ؟

ما هى القراءة باسم ربك فى القول ؟

إن الله سبحانه وتعالى بين لنا الإحسان فى القول ، كما بين لنا الإحسان فى العمل ، يقول سبحانه فى الجانبين :

(ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً ، وقال إننى من المسلمين) فصلت : ٣٣ .

ويقول سبحانه :

(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولكم فيها ماتدعون ، نزلا من غفور رحيم) فصلت : ٣٠ — ٣٢ .

ولقد ضرب الله لنا المثل فى الكلمة الطيبة ، وفى الكلمة الخبيثة فقال سبحانه :

(ألم تر كيف ضرب الله مثلاً : كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ،

يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله مايشاء) [١] .

واتباع أحسن ما أنزل الله فى القول إنما هو الدعوة إلى الله بنص الآية الكريمة وإعلان الإسلام : (وقال إننى من المسلمين) [٢] . ومن ذلك الذكر والدعاء .

فى الذكر

يقول سبحانه : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لايحتسب) [٣]

وإن مما يعين على التقوى وهو فى الوقت نفسه من ثمار التقوى : الذكر ، وحثنا الله سبحانه على الذكر فى أسلوب أمر :

(يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً) الأحزاب : ٤١ .

وقال : (واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال [٤] ولاتكن من الغافلين) الأعراف : ٢٠٥ .

وحثنا سبحانه على الذكر فى أسلوب أخاذ : (فاذكرونى أذكركم) البقرة : ١٥٢ .

ولقد أخرج الإمام البخارى رضى الله عنه من حديث قتادة عن رسول الله ﷺ ، فيما يرويه عن ربه قال : قال الله عز وجل : « يابن آدم ، إن ذكرتنى فى نفسك ذكرتك فى نفسى ، وإن ذكرتنى فى ملأ ذكرتك فى ملأ خير منه ، وإن دنوت منى شبراً دنوت منك ذراعاً ، وإن دنوت منى ذراعاً دنوت منك باعاً ، وإن أتيتنى تمشى أتيتك هرولة » (حديث قدسى) .

---

(١) سورة إبراهيم : الآيات ٢٤ – ٢٧ .

(٢) فصلت : ٣٣ .

(٣) سورة الطلاق من آية : ٢ – ٣ .

(٤) الآصال جمع أصيل وهو مابين العصر والمغرب .

ومن السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لاظل إلا ظله : رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله .

وروى البيهقى فى الشعب من حديث عمر بن الخطاب : قال الله عز وجل : « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » حديث قدسى .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : كان رسول الله ﷺ يسير فى طريق مكة ، فمر على جبل يقال له جمدان ، فقال : « سيروا هذا جمدان ، سبق المفردون » قالوا : وما المفردون يارسول الله ؟ قال : « الذاكرون الله كثيراً » .(١)

وعن أم أنس رضى الله عنها قالت : يارسول الله أوصنى ، قال :

« اهجرى المعاصى ، فإنها أفضل الهجرة ؛ وحافظى على الفرائض ، فإنها أفضل الجهاد ؛ وأكثرى من ذكر الله ؛ فإنك لاتأتين الله بشىء أحب إليه من كثرة ذكره » (٢).

وفى رواية لها عن أم أنس :

« واذكرى الله كثيراً فإن أحب الأعمال إلى الله أن تلقاه بها » (٣)) .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » .

قالوا : وما رياض الجنة ؟

قال : « حلق الذكر » .

وأفضل الذكر إنما هو التعبد بتلاوة القرآن . ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يكثرون من تلاوته تعبداً به ، وكانوا يقسمونه أقساماً . لقد كان القرآن لهم حزباً . وأول مايرجع إليه فى التقديرات قول رسول الله ﷺ (٤) : « من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث لم يفقهه » .

وذلك لأن الزيادة عليه تمنعه الترتيل ، وقد قالت عائشة رضى الله عنها لما سمعت

---

(١) رواه مسلم واللفظ له ، والترمذى ، ولفظ : يارسول الله ، وما المفردون ؟

(٢) رواه الطبرانى بإسناد جيد .

(٣) قال الطبرانى : أم أنس هذه يعنى الثانية — ليست أم أنس بن مالك .

(٤) عن إحياء علوم الدين .

رجلاً يهذر القرآن هذراً . إن هذا ما قرأ القرآن ولا سكت ! وأمر النبى ﷺ عبد الله ابن عمرو رضى الله عنهما أن يختم القرآن فى كل سبع . وكذلك كان جماعة من الصحابة رضى الله عنهم يختمون القرآن فى كل جمعة : كعثمان وزيد بن ثابت ، وابن مسعود ، وأبى بن كعب رضى الله عنهم . أما من ختم فى الأسبوع مرة فيقسم القرآن سبعة أحزاب . فقد حزب الصحابة رضى الله عنهم القرآن أحزاباً : فروى أن عثمان رضى الله عنه كان يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة ، وليلة السبت بالأنعام إلى هود ، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم وليلة الاثنين بطه إلى طسم موسى وفرعون ، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص ، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن ، ويختم ليلة الخميس .

قيل : أحزاب القرآن سبعة : فالحزب الأول ثلاث سور ، والحزب الثانى خمس سور والحزب الثالث سبع سور ، والحزب الرابع تسع سور ، والخامس إحدى عشرة سورة ، والسادس ثلاث عشرة سورة ، والسابع المفصل من ق إلى آخره .

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يضعون أمام أعينهم قول رسول الله ﷺ : من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول « ألم » حرف ، ولكن : ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف[1] .

وقول رسول الله ﷺ : لا حسد إلا على اثنين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتاه الله القرآن فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار[2] .

ولقد وردت الآثار فى الحث على سور وآيات معينة ونورد هنا بعض ذلك ليكون كنموذج فقط . وذلك أننا توسعنا فى الموضوع فى كتابنا (العبادة) ونورده أيضاً ليكون فيه ترغيب فى حفظ بعض السور القرآنية لمن لم يحفظ شيئاً من القرآن .

ومن الذكر : الاستغفار .

---

(١) رواه الترمذى بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه ، وقال : « هذا حديث حسن صحيح .

(٢) رواه البخارى ومسلم ، ومعنى الحسد هنا : الغبطة .

ونعود به مرة أخرى إلى التوبة فى صورة أخرى من صورها ، أو فى زاوية من أهم زواياها :

يروى علقمة ويروى الأسود عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : فى كتاب الله عز وجل آيتان ما أذنب عبد ذنباً فقرأهما واستغفر الله عز وجل إلا غفر الله تعالى له : (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) [١] . وقوله : عز وجل : (ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً). النساء/١١٠ .

ولقد قال ﷺ فى شأن الاستغفار الخالص : « من أكثر من الاستغفار جعل الله عز وجل له من كل هم فرجا . ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » .

وهذا الحديث الشريف يسير فى انسجام مع قوله تعالى : (استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ، ويجعل لكم أنهاراً). نوح : ١٠ -١٢ .

وقوله تعالى على لسان نبى الله هود : (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين) [٢] .

والاستغفار مستحب فى كل الأوقات ، وإن لم يكن ذنب . يقول الله تعالى فى إطلاق لا تحديد فيه : (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً) النصر : ٣ .

ومع هذا الإطلاق العام فإن الله سبحانه وتعالى ذكر الأسحار باعتبارها من الأوقات التى يستغفر فيها المتقون . بقوله سبحانه : (وبالأسحار هم يستغفرون) الذاريات : ١٨ . ومن أجل ذلك فإن الذين يستيقظون فى ثلث الليل الأخير يحرصون على انتهاز فرصة نزول ربنا إلى سماء الدنيا منادياً : « ألا هل من مستغفر فأغفر له ؟ ألا هل من تائب فأتوب عليه ؟ ألا هل من سائل فأعطيه ؟ » . . فيأخذون فى الاستغفار .

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٣٥ . (٢) سورة هود آية : ٥٢ .

وسيد الاستغفار هو كما أخبر الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه : « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى ، فاغفر لى ؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

ويروى الإمام الغزالى عن بعض العلماء أنه قال : « العبد بين ذنب ونعمة لايصلحها إلا الاستغفار والحمد » .

ويروى عن قتادة رحمه الله قوله : « القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم : أما دواؤكم فالذنوب ، وأما داؤكم فالاستغفار » .

ومن الذكر التهليل وهو الذكر بلا إله إلا الله .

ومما وصفت به كلمة : لا إله إلا الله – أنها : « كلمة التوحيد ، وهى كلمة الإخلاص ، وهى كلمة التقوى ، وهى الكلمة الطيبة ، وهى دعوة الحق ، وهى العروة الوثقى ، وهى ثمن الجنه » [١]

وقد روى الترمذى بسنده عن رسول الله ﷺ أنه قال : « خير ماقلت أنا والنبيون من قبلى : أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير » .

وقد أخرج الإمامان – البخارى ومسلم رضى الله عنهما من حديث أبى هريرة نضر الله وجهه – أن رسول الله ﷺ قال :

« من قال لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير مائة مرة – كانت له عدل عشر رقاب ، وكتب له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك .

ومن الذكر التسبيح والتحميد والتكبير والحوقلة . يقول الله تعالى : (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود) [٢].

---

(١) إحياء علوم الدين .

(٢) سورة ق من آيتى ٣٩ – ٤٠ .

ويقول تعالى : (وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم)[١] .

ويقول جل شأنه :(فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان تواباً)[٢].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » [٣] .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله ؟ قلت : يارسول الله أخبرنى بأحب الكلام إلى الله ، فقال : « إن أحب الكلام إلى الله : سبحان الله وبحمده » [٤] .

وعن جويرية رضى الله عنها : أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج من عندها ، ثم رجع بعد أن أضحى وهى جالسة ، فقال : مازلت على الحال التى فارقتك عليها ؟ قالت : نعم . قال النبى ﷺ : « لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات ، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : « سبحان الله وبحمده عدد خلقه ، ورضاء نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته [٥] .

وأن من الصيغ المباركة الجامعة التى تؤخذ من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والتى جربها الكثير من الصالحين ، فوجدوا لها نوراً وبركة : « سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم أستغفر الله » .

ومن الذكر الصلاة على النبى ﷺ .

يقول الله تعالى : (إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً) . الأحزاب : ٥٦ .

ولقد روى الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

---

(١) سورة الطور آيتا : ٤٨ – ٤٩ .
(٢) سورة النصر آية : ٣ .
(٣) رواه البخارى ومسلم .
(٤) رواه مسلم ، والنسائى ، والترمذى .
(٥) رواه مسلم ، والنسائى ، وابن ماجه ، والترمذى .

« من صلى علىّ صلاةً صلى الله عليه بها عشراً » .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه – فيما رواه الترمذى وحسنه – أن رسول الله ﷺ قال :

أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم علىّ صلاة » .

وروى الأئمة : أحمد والترمذى والحاكم بسندهم عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« أكثروا علىّ من الصلاة يوم الجمعة فإنه مشهود تشهده الملائكة ، وإن أحداً لن يصلى على إلا عرضت على صلاته حتى يفرغ منها » قال قلت : وبعد الموت ؟ قال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

ومن أفضل صيغ الصلاة على النبى ﷺ – الصيغة التى يقرؤها الإنسان فى التشهد فى الصلاة ، وصيغ الصلاة على رسول الله ﷺ كثيرة ، ويسعدنى هنا أن أذكر أن الصيغة التى أضاءت حروفها وتلألأت ، والتى ذكرت حروفها فى كتاب « المدرسة الشاذلية » وهى لتفريج الكرب :

« اللهم صلّ صلاة جلال ، وسلم سلام جمال على حضرة حبيبك سيدنا محمد ، واغشه اللهم بنورك كما غشيته سحابة التجليات ، فنظر إلى وجهك الكريم ، بحقيقة الحقائق كلم مولاه العظيم الذى أعاذه من كل سوء . اللهم فرج كربى كما وعدت : (أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء) النمل : ٦٢ وعلى آله وصحبه ، آمين .

فى الدعاء

إن القرآن الكريم يذكر لنا مجموعة من الأدعية تناسب ظروف الحياة المختلفة : فهو مثلاً يحدثنا عن صورة المؤمنين فى الحروب سواء فيما يتعلق بالفعل أو بالقول ، ويبين النتائج التى رتبها سبحانه على موقفهم ، فيقول تعالى :

(وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين) آل عمران : ١٤٦ .

(وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة الآخرة ، والله يحب المحسنين)[١] .

ويعلمنا الله سبحانه وتعالى مايقال من دعاء عند نزغ الشيطان ، فيقول سبحانه : (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) .فصلت / ٣٦ .

ويقول سبحانه فى ذلك : (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون) . المؤمنون : ٩٧ – ٩٨ .

ولقد أخذ كثير من الناس يتدبرون القرآن فى مواطن الدعاء ، فاكتشفوا أسراراً من أسرار الدعاء ، صرحوا ببعضها وتركوا لغيرهم أن يتدبر ويكتشف .

ومن هؤلاء الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه الذى يقول متدبراً للقرآن ومستنتجاً منه : عجبت لأربع ، كيف يغفلون عن أربع :

١ – عجبت لمن ابتلى بالخوف كيف يغفل عن : « حسبنا الله ونعم الوكيل » . والله سبحانه وتعالى يقول : (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء) . آل عمران : ١٧٤ .

وأصل هذه القصة معروف : يروى ابن هشام بخصوص موقف المسلمين فى أحد بعد المعركة ثانى يوم فيها قال : مر بأبى سفيان – وكان حينئذ قائد المشركين – ركب من عبد القيس ، فقال لهم أبو سفيان : أين تريدون ؟ قالوا : نريد المدينة ، قال : ولم ؟ قالوا : نريد الميرة ، قال : فهل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة أرسلكم بها إليه ، وأحمل لكل فى مقابل ذلك زبيباً بعكاظ إذا وافيتمونا ؟ قالوا : نعم . قال : إذا وافيتم محمداً فأخبروه أنا قد جمعنا المسير إليه ، وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم .

ومر الركب برسول الله ﷺ ، وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذى قال أبو سفيان ، فكان رد الفعل عند رسول الله ﷺ وأصحابه ماصوره الله تعالى بقوله :

---

(١) سورة آل عمران آيتا : ١٤٧ – ١٤٨ .

(الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم . فاخشوهم فزادهم إيماناً . وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء . واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) آل عمران : ١٧٣ - ١٧٤ .

ويقول الإمام جعفر :

وعجبت لمن ابتلى بمكر الناس به كيف يغفل عن : (وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد) . غافر : ٤٤ .

والله سبحانه وتعالى يقول : (فوقاه الله سيئات مامكروا) غافر : ٤٥ .

وهذه القصة هى قصة مؤمن آل فرعون . (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه) . غافر : ٢٨ . فلما قال فرعون : « ذرونى أقتل موسى » . غافر : ٢٦ . قال المؤمن :

(أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله . وقد جاءكم بالبينات من ربكم . وإن يك كاذباً فعليه كذبه . وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لايهدى من هو مسرف كذاب . ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا) [١]

وأخذ يدعو قومه إلى الحق . وأخذ يجادل ويناقش محاولاً جرهم إلى سواء السبيل ثم انتهى به الأمر معهم أن قال : (فستذكرون ما أقول لكم . وأفوض أمرى إلى الله . إن الله بصير بالعباد . فوقاه الله سيئات مامكروا . وحاق بآل فرعون سوء العذاب) [٢]

لقد حفظه الله حينما فوض الأمر إليه حالاً ومقالاً . ويقول الإمام جعفر :

٣ - وعجبت لمن ابتلى بالضر كيف يغفل عن : (أنى مسنى الضر ، وأنت أرحم الراحمين) الأنبياء : ٨٣ . والله سبحانه وتعالى يقول : (فاستجبنا له فكشفنا مابه من ضر) . الأنبياء : ٨٤ .

والحادثة يرويها القرآن الكريم فى سورة الأنبياء قائلاً : « وأيوب إذ نادى ربه أنى

---

(١) سورة غافر آيتا : ٢٨ - ٢٩ .

(٢) سورة غافر آيتا : ٤٤ ، ٤٥ .

مسنى الضر ، وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له . فكشفنا مابه من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) الأنبياء : ٨٣ – ٨٤ .

ويقول الإمام جعفر :

٤ – وعجبت لمن ابتلى بالغم ، كيف يغفل عن : (لا إله إلا أنت ، سبحانك ، إنى كنت من الظالمين) الأنبياء : ٨٧ .

والله سبحانه وتعالى يقول : (فاستجبنا له ونجيناه من الغم) الأنبياء : ٨٨ .

والقصة كما يذكرها القرآن : (وذا النون إذ ذهب مغاضباً ، فظن أن لن نقدر عليه . فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ، ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنين) [١]

وعلى غرار النسق الذى ذكره الإمام الصادق ، يمكن أن يقال : « عجبت لمن أذنب كيف يغفل عن : (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) الأعراف/٢٣ . والقصة كما يرويها القرآن عن آدم وحواء حينما أكلا من الشجرة : « وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين . قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) [٢] .

وعجبت لمن يخشى العذاب فى الدنيا ، كيف يغفل عن الاستغفار ، والله سبحانه وتعالى يقول : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » [٣] .

ولقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بأن ندعوه وأن نلجأ إليه . وأن نتضرع له فى الرخاء وفى الشدة . وإن الإنسان وهو فى حالة النقص الدائم لمحتاج إلى الله سبحانه وتعالى ، فى كل لحظة . فهو فى حاجة إذن إلى الدعاء فى كل فترات حياته يقول الله سبحانه وتعالى : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) [٤] . ويقول سبحانه :

---

(١) سورة الأنبياء آيتا : ٨٧ – ٨٨ .
(٢) سورة الأعراف آيتا : ٢٢ ، ٢٣ .
(٣) سورة الأنفال آية : ٣٣ .
(٤) سورة البقرة آية : ١٨٦ .

(أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ماتذكرون) النمل : ٦٢ .

ولقد التجأ إلى الله بالدعاء الأنبياء والمرسلون : لقد دعوه فى كل وقت لاجئين إليه ، مستغيثين به فى جميع أمورهم . ومن أمثلة ذلك قوله سبحانه :

(وزكريا إذ نادى ربه ، رب لاتذرنى فرداً وأنت خير الوارثين . فاستجبنا له ، ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ، ويدعوننا رغباً ورهباً ، وكانوا لنا خاشعين)[١] .

واستغاث به المسلمون متضرعين خاشعين داعين ، فاستجاب لهم : (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين)[٢]

واتجه إليه رسول الله ﷺ حين عودته من الطائف بهذا الدعاء الرائع :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

والواقع أن فى الدعاء تتمثل العبودية لله سبحانه وتعالى واضحة جلية ، أى أنه تتمثل فيه العبادة فى صورة من أصدق صورها . أما العزوف عن الدعاء فإنه عادة ينشأ عن نوع من عدم المبالاة بالدين ، أساسه الكبرياء الذى ينشأ عن الكثير من المعاصى والبدع والانحرافات ، والذى كان فى جذور المعصية التى تورط فيها إبليس حينما أمره الله فيمن أمر بالسجود لآدم . لقد أبى واستكبر وقال : « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » .[٣]

ولقد حمله كبرياؤه على الخطأ فى أيسر الأمور ، لقد جعل مناط الخيريّة المادة :

---

(١) سورة الأنبياء آيا : ٨٩ ، ٩٠ .
(٢) سورة الأنفال آية : ٩ .
(٣) سورة الأعراف آية : ١٢ .

مادة الجسم . ولم يهتد عقله فى ساعة كبريائه إلى أن المادة مجرد وعاء ، ، وأن الوعاء لايكون مقياس التفضيل ، وأن مافى الوعاء هو الذى يكون نفيساً سامياً أو خسيساً لاقيمة له .

ومنعه كبرياؤه أيضاً : من أن يرجع إلى الله بالتوبة الخالصة النصوح ، وهى من مظاهر العبودية . ولذلك طرد من رحمة الله . أما آدم : فإنه بمجرد أن أكل من الشجرة شعر بالحياء من الله ، فلجأ إليه مستغفراً تائباً منيباً . وتمثل فيه مظهر العبودية جليا واضحاً : الدعاء .

« ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين)[١] .

آيات فى الدعاء :

بسم الله الرحمن الرحيم : (الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين . إهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) سورة الفاتحة .

(وإذ قال موسى لقومه : إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، قالوا أتتخذنا هزواً ، قال : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين)[٢] .

(وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم)[٣] .

(ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار)[٤] .

(فلما فصل طالوت بالجنود قال : إن الله مبتليكم بنهر ، فمن شرب منه ، فليس منى ، ومن لم يطعمه فإنه منى ، إلا من اغترف غرفة بيده . فشربوا منه إلا قليلا منهم . فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا : لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ،

---

(١) سورة الأعراف آية : ٢٣ .
(٢) سورة البقرة آية : ٦٧ .
(٣) سورة البقرة آيتا : ١٢٧ ، ١٢٨ .
(٤) سورة البقرة آية : ٢٠١ .

قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله ، كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين . ولما برزوا لجالوت وجنوده ، قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين)[١] .

(آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير .

لايكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولاتحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولاتحملنا مالاطاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين)[٢] .

(ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب)[٣] .

(الذين يقولون ربنا إننا آمنا ، فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار)[٤] .

(هنالك دعا زكريا ربه ، قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء)[٥] .

(ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول ، فاكتبنا مع الشاهدين)[٦] .

(وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين)[٧] .

(ربنا ماخلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار)[٨] .

(ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك ، ولاتخزنا يوم

---

(١) سورة البقرة آيتا : ٢٤٩ ، ٢٥٠ .
(٢) سورة البقرة آيتا : ٢٨٥ ، ٢٨٦ .
(٣) سورة آل عمران آية : ٨ .
(٤) سورة آل عمران آية : ١٦ .
(٥) سورة آل عمران آية : ٣٨ .
(٦) سورة آل عمران آية : ٥٣ .
(٧) سورة آل عمران آية ١٤٧ .
(٨) سورة آل عمران آية : ١٩١ .

القيامة إنك لاتخلف الميعاد)[١]

(الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها . واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً)[٢] .

(وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق . يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين)[٣] .

(قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين)[٤] .

(وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار . قالوا ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين)[٥] .

(وماتنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا . ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين)[٦] .

(قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك . وأنت أرحم الراحمين)[٧] .

(فقالوا على الله توكلنا ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين)[٨] .

(رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ، ربنا وتقبل دعاء ، ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب)[٩] .

(إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا : ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا)[١٠] .

---

(١) سورة آل عمران آيتا :١٩٣ ، ١٩٤ .
(٢) سورة النساء آية : ٧٥ .
(٣) سورة المائدة آية : ٨٣ .
(٤) سورة المائدة آية : ١١٤ .
(٥) سورة الأعراف آية : ٤٧ .
(٦) سورة الأعراف آية : ١٢٦ .
(٧) سورة الأعراف آية : ١٥١ .
(٨) سورة يونس آيتا : ٨٥ ، ٨٦ .
(٩) سورة إبراهيم آيتا : ٤٠ ، ٤١ .
(١٠) سورة الكهف آية : ١٠ .

(قال رب اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى)[١] .

(فتعالى الله الملك الحق ، ولاتعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ، وقل رب زدنى علما)[٢]

وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين .

فاستجبنا له ، ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين .

(وزكريا إذ نادى ربه ، رب لاتذرنى فرداً وأنت خير الوارثين ، فاستجبنا له ، ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا وزهبا ، وكانوا لنا خاشعين)[٣]

(قل رب إما ترينى مايوعدون ، رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين)[٤]

(وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك رب أن يحضرون)[٥] .

(إنه كان فريق من عبادى يقولون ، ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين)[٦] .

(وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين)[٧] .

(والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، إنها ساءت مستقرا ومقاماً)[٨] .

(والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرّة أعين واجعلنا للمتقين إماما)[٩] .

(رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين .

واجعل لى لسان صدق فى الآخرين .

---

(١) سورة طه الآيات : ٢٥ – ٢٨ .
(٢) سورة طه آية ١١٤ .
(٣) سورة الأنبياء الآيات : ٨٧ – ٩٠ .
(٤) سورة المؤمنون آيتا : ٩٣ ، ٩٤ .
(٥) المؤمنون آيتا : ٩٧ ، ٩٨ .
(٦) سورة المؤمنون آية : ١٠٩ .
(٧) سورة المؤمنون آية : ١١٨ .
(٨) سورة الفرقان آيتا : ٦٥ ، ٦٦ .
(٩) سورة الفرقان آية : ٧٤ .

واجعلنى من ورثة جنة النعيم .
واغفر لأبى إنه كان من الضالين .
ولاتخزنى يوم يبعثون .
يوم لاينفع مال ولابنون .
إلا من أتى الله بقلب سليم)[١] .

(فتبسم ضاحكاً من قولها ، وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين)[٢] .

(قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى ، فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم)[٣] .

(فخرج منها خائفاً يترقب ، قال رب نجنى من القوم الظالمين)[٤] .

(ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم .

ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم ، وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم)[٥] .

(فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد)[٦]

(ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون)[٧]

(قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين)[٨]

(ليس لها من دون الله كاشفة)[٩]

(والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولاتجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم)[١٠]

---

(١) سورة الشعراء الآيات : ٨٣ – ٨٩ .
(٢) سورة النمل آية : ١٩ .
(٣) سورة القصص آية : ١٦ .
(٤) سورة القصص آية : ٢١ .
(٥) سورة غافر آية : ٧ ، ٨ .
(٦) سورة غافر آية : ٤٤ .
(٧) سورة الدخان آية : ١٢ .
(٨) سورة الأحقاف آية : ١٥ .
(٩) سورة النجم آية : ٥٨ .
(١٠) سورة الحشر آية : ١٠ .

(ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا ، وإليك المصير

(ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم)[١]

(يوم لايخزى الله النبى والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم ، وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا ، إنك على كل شىء قدير)[٢]

(قل أعوذ برب الفلق . من شر ماخلق . ومن شر غاسق إذا وقب . ومن شر النفاثات فى العقد . ومن شر حاسد إذا حسد)[٣]

(قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس الخناس . الذى يوسوس فى صدور الناس – من الجنة والناس)[٤] .

(بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراطَ المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) آمين .[٥]

القرآن يرسم طريق النصر

يقول الله سبحانه وتعالى :

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقًّا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم)[٦] .

أخرج أبو حاتم ، وابن مردويه ، عن جابر رضى الله عنه قال : نزلت هذه الآية الكريمة على رسول الله ﷺ ، وهو فى المسجد ، فكثر الناس فى المسجد ، فأقبل رجل من الأنصار ثانيا طرفى ردائه على عاتقه ، فقال يارسول الله أنزلت هذه الآية ؟ قال : نعم فقال الأنصارى : بيع ربيح ، لانقبل ولانستقبل .

---

(١) سورة الممتحنه آيتا : ٤ ، ٥

(٢) سورة التحريم آية : ٨

(٣) سورة الفلق .

(٤) سورة الناس .

(٥) سورة الفاتحة .

(٦) سورة التوبة آية : ١١١ .

وقد فرح المسلمون بهذه الآية حينما نزلت فرحا كثيراً . وذلك أنها بينت لهم فى صورة اليقين أن الجهاد جزاؤه الجنة ، سواء أكانت نتيجته النصر أم كانت نتيجته الاستشهاد .

إن الجهاد على أى وضع كانت نتيجته ثمنه الجنة . ورسول الله ﷺ يقول : « الجنة تحت ظلال السيوف »

ولقد صور الله سبحانه وتعالى جهاد المؤمنين ، وبذل أموالهم وأنفسهم فيه ، وإثابة الله لهم على ذلك بالجنة ، لقد صور الله ذلك بالبيع والشراء .

والمعقود عليه هو الجهاد ، والثمن هو الجنة ، والبائع هو المجاهد ، والمشترى هو الله سبحانه ، ومكان البيع هو ميدان المعركة ، وتسجيل العقد فى عدة جهات موثوق بها هى الكتب السماوية .

والربح مؤكد على أية حال كانت نتيجة الجهاد ، لأنه سبحانه لم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط ، بل إذا كانوا قاتلين أيضاً لإعلاء كلمته ونصر دينه)[1] .

أما المؤمنون الذين باعوا أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة فقد ذكر الله صفاتهم وعدها واحدة واحدة : فهم التائبون .

وأول ماذكر الله من الصفات التى لايتأتى للمؤمن أن يستقيم فى صلته بالله إلا بها وهى صفة التوبة فهم التائبون والتوبة صفة يحبها الله سبحانه وتعالى : يقول سبحانه : (إن الله يحب التوابين) البقرة/٢٢٢

والله يفرح بها . . يقول صلوات الله وسلامه عليه : إن الله يفرح بتوبة عبده المؤمن .

وهم العابدون : إنهم عابدون بجهادهم ، وهم عابدون بعملهم ، وهم عابدون بأقوالهم ، لقد صيروا حياتهم فى كفاحها وفى نضالها وفى قولها وصمتها وفى حركتها وسكونها إلى عبادة ، فتحققوا بقوله تعالى :

(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) الذاريات/ ٥٦

وهم الحامدون لله فى السراء والضراء ، فى العسر واليسر ، فى الرخاء والشدة :

---

(١) انظر تفسير الكشاف فى ذلك .

لأنهم يعلمون أن حكمة الله فوق كل حكمة ، وتصريفه أحكم تصريف .

وهم السائحون : أى يطرقون كل الوسائل فى سبيل الرقى الذاتى : بالسياحة فى مجال المعرفة ، والسياحة فى مجال العلم ، والسياحة فى مجال العبادة ، وشعارهم أن من استوى يوماً فهو مغبون ، ومن لم يكن إلى زيادة فهو إلى نقصان ، فالسياحة هى الضرب فى جميع المجالات تقرباً من الكمال الذى يحبه الله للمؤمن .

وهم الراكعون الساجدون . أى المصلون فى خشوع وخضوع .

وهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، بعد أن ائتمروا بالمعروف وانتهوا عن المنكر فى أنفسهم ، وذلك ماعبر الله عنه سبحانه بقوله : (والحافظون لحدود الله)[١] .

وبعد : فإن الآية الكريمة تنتهى بقوله تعالى : (وبشر المؤمنين) .

والتبشير هنا للمؤمنين الصادقين علم مطلق ، بشرهم بالفوز ، بشرهم بالأمن ، بشرهم بالسعادة ، وبشرهم بالنصر .

ونعود إلى الآية الكريمة من جديد :

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة)[٢]

إن هذا العهد والتعاقد بين الله والمؤمنين إنما هو عهد الإيمان يبيع فيه المؤمن نفسه وماله يقدمها إلى الله فلا يبخل بالمال فى سبيله سبحانه ، ولايبخل بالنفس حينما تقتضى الظروف البذل والتضحية والفدائية .

والإيمان إذن - ومن شرائطه الجود بالمال والنفس - وهو أول خطوة أساسية جوهرية فى طريق النصر بل هو خطوة بدونها لايكون هناك أبداً أساس مستقيم ، تعتمد عليه الأمم ، ويعتمد عليه القادة فى سبيل اتخاذ مكان كريم بين الدول .

على أن القرآن لايعد المؤمن مؤمناً صادقاً إلا إذا كان مجاهداً بماله وبنفسه فى سبيل الله .

(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم

---

(١) سورة التوبة آية ١١٢ .

(٢) سورة التوبة آية ١١١

وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون)[١]

أما إذا كان الإيمان ضعيفاً مزعزعاً متأرجحاً فإن نتيجة ذلك تكون تباطؤاً عن الخروج إلى الجهاد ، بل تخلفا عنه :

(لايستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم . والله عليم بالمتقين ؛ إنما يستأذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر . وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون)[٢] .

بل إن وجود العناصر التى لايملأ الإيمان أفئدتها فى صفوف المجاهدين تضر قضيتهم .

(لوخرجو فيكم مازادوكم إلا خبالاً . ولأوضعوا خلالكم . يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم)[٣] .

وضعفاء الإيمان ، ومن لا إيمان عندهم يستخفون حين يبدأ النضال ويتخلفون عن الجهاد فرحين بذلك .

(فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله . وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وقالوا لاتنفروا فى الحر ، قل نار جهنم أشد حرًّا لو كانوا يفقهون)[٤] .

ويأمر القرآن الرسول ﷺ أن يعزل هذه العناصر عن معسكر المؤمنين وألا يأذن لهم بالمشاركة فى الجهاد .

(فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج ، فقل لن تخرجوا معى أبداً ، ولن تقاتلوا معى عدوًّا ، إنكم رضيتم بالقعود أول مرة ، فاقعدوا مع الخالفين) التوبة/٨٣ .

هذا الإيمان إنما هو إيجابى : يستعد ويهيئ للأمر عدته ولا يدع صغيرة ولا كبيرة من أمر التعبئة للجهاد إلا يحكمها ، ومن هنا كانت الخطوة (الثانية) فى طريق النصر ممثلة فى قوله تعالى :

---

(١) سورة الحجرات آية : ١٥ .
(٢) سورة التوبة آيتا : ٤٤ ، ٤٥ .
(٣) سورة التوبة آية : ٤٧ .
(٤) سورة التوبة آية : ٨١ .

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) الأنفال/ ٦٠

وهذه القوة لاتقتصر على القوة المادية ، وإنما تتضمنها وتتسع دائرتها فتشمل التعبئة الروحية .

ومما لاشك فيه أن التعبئة الروحية قوة دافعة نحو الثبات فى لقاء العدو والإقدام فى شجاعة نحو تحقيق النصر.

(يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) [١]

والتعبئة الروحية إنما تثبت دعائمها وتؤتى ثمارها حينما يكون الهدف من الجهاد واضحاً سافراً .

ومن هنا كانت الخطوة الثالثة التى رسمها القرآن فى طريق النصر ، وهى وضوح الهدف والهدف القرآنى من الجهاد ، ولا بأس من ذكره مرة (ثانية) – ليس عرضاً مادياً أو حظًّا دنيوياً وما كانت هجرة المجاهد لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، إنما هجرته إلى الله ورسوله . ومعنى ذلك : أن هدف الجهاد إنما هو إعلاء كلمة الله ، وكلمة الله هى الحق . وهى العدالة وهى الرحمة ، وهى الأخوة ، وهى السلام العالمى ، بالنسبة للفرد فى نفسه ، ودمه وماله وعرضه ، أو بالنسبة للأمة فى كرامتها وعزتها وكل مقدساتها .

(الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله) [٢] .

والتعبئة الروحية كفيلة بأن تجعل الأمة فى جهادها كالبنيان المرصوص ومن هنا كانت الخطوة الرابعة التى رسمها القرآن فى سبيل النصر.

(إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفًّا كأنهم بنيان مرصوص) [٣]

(ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين) [٤]

(واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا) [٥].

فإذا ماوسوس الشيطان بنزاع أو خلاف ، وإذا ماتحدثت النفس بفرقة

---

(١) سورة الأنفال آية : ٤٥ .
(٢) سورة النساء آية : ٧٦ .
(٣) سورة الصف آية : ٤ .
(٤) سورة الأنفال آية : ٤٦ .
(٥) سورة آل عمران آية : ١٠٣ .

وشقاق – فإن طريقة تسوية ذلك مرسومة واضحة :

(فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً)[١] .

إن الأمة التى تنصر الله باتباعها للدين الخالص قد ضمن الله لها النصر ووعدها به ، ووعد الله لايتخلف .

(إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)[٢]

(ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز)[٣] .

أما الموقف الأخير فهو التفويض لله سبحانه . والثقة فيه وحده والاعتماد عليه لاعلى النفس أو القوة المادية ، أو أىّ شىء آخر ، وقد أعطى الله المسلمين درساً قاسياً حينما اعتمدوا على قوتهم وكثرتهم ، وعلى تفوقهم وعددهم وعتادهم وقالوا :

« لن نغلب اليوم من قلة »

كان ذلك فى غزوة حنين ، ولقد صور الله الموقف تصويراً قوياً فقال سبحانه :

(لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين ، إذ أعجبتكم كثرتكم ، فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ، والله غفور رحيم)[٤] .

---

(١) سورة النساء آية : ٤٥ .
(٢) سورة محمد آية : ٧ .
(٣) سورة الحج آية : ٤٠ .
(٤) سورة التوبة الآيات : ٢٥ – ٢٧ .